التعادلية مع الإسلام

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

التعادلية
مع
الإسلام والتعادلية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ـ محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
٢ ـ عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
٣ ـ أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
٤ ـ شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
٥ ـ يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧
٦ ـ عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
٧ ـ تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
٨ ـ أشعب (رواية) ١٩٣٨
٩ ـ عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
١٠ ـ حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
١١ ـ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
١٢ ـ راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
١٣ ـ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
١٤ ـ حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
١٥ ـ سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
١٦ ـ من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
١٧ ـ تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
١٨ ـ بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
١٩ ـ سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
٢٠ ـ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـ رسائل) ١٩٤٣
٢١ ـ الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيـــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠. وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

تعادلية الحكيم(*)

بقلم

دكتور زكى نجيب محمود

(١)

وقفة الأديب ووقفة الناقد مختلفتان ، اختلاف المرحلتين اللتين تكمل إحداهما الأخرى ، لا اختلاف الضدين اللذين ينفى أحدهما ما يثبته الآخر ، فالأديب يصور الإنسان تجسيدا فى أفراد ومواقف ، وأما الناقد فيتناول بالتحليل هذه الأفراد والمواقف لعله أن يقع على مبدأ كامن وراءها ، يكون هو عندئذ مبدأ الأديب قد أضمره فى طويته ليخرجه للناس متجليا فيما خلقه لهم من تلك

(*) هذا مقال تحليلى للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود نشر فى عدد خاص عن توفيق الحكيم فى مجلة الهلال بتاريخ أول فبراير سنة ١٩٦٨ ميلادية .

الأفراد والمواقف ، فوقفة الناقد من أدب الأديب ومخلوقاته ، أشبه ما تكون بوقفة العالم من الطبيعة وكائناتها : كل منهما يجد نفسه بإزاء كثرة من وقائع وحقائق ، فيحاول استقطابها فى أم واحدة تربطها جميعا بصلة الرحم .

وكثيرا ما يكون الأديب والناقد رجلين ، يفحص أحدهما عمل الآخر ، وقليلا ما يجتمع الأديب والناقد فى رجل واحد ، يكون اليوم أديبا ثم يصبح فى غد ناقدا لأدبه ، مستخرجا منه أصوله ومبادئه ، وقد كان توفيق الحكيم بكتابه « التعادلية » واحدا من هؤلاء القلة ، التى التقى فيها خلق الأديب وتحليل الناقد ، فقد جاءته — فيما يروى لنا — رسالة من قارئ جاد ، يسأله فيها عن مذهبه فى الحياة والفن ، مستخلصا من كتبه ، ليرى صاحب هذه الرسالة إن كان قد أصاب أو أخطأ فى استخلاص ذلك المذهب لنفسه ، ذلك أن ذلك السائل قد انتهى بعد قراءته لكتب الحكيم إلى رأى ، هو أن تلك الكتب فى مجموعها تحاول تفسير « الإنسان » فى وضعه العام من الكون بزمانه ومكانه ، وفى وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته ، فانتهز أديبنا الحكيم

فرصة سؤال السائل ، وهمَّ بالإجابة ليعدها للنشر ، لأنها ربما جاءت على صورة محددة يمكن وصفها بأنها مذهبه فى الحياة والفن ، فكان هذا الكتاب الذى بين أيدينا : « التعادلية » .

(٢)

قرأت الكتاب ، فخيل إلىّ وأنا ماض بين صفحاته ، أننى إنما أستمع إلى فيلسوف من فلاسفة اليونان الأقدمين ، يتكلم العربية ويرتدى ثياب أوروبا العصرية .

لكن الفكر واللغة والثياب لم يكن بينها — مع ذلك — تنافر ، بل جاءت كلها فى وحدة متسقة تنسيك اختلاف وجوهها ، فأديبنا الحكيم فى « تعادليته » ، ينظر إلى الكون وإلى الإنسان ، النظرة نفسها التى نظر بها فلاسفة اليونان ، وهى نظرة تحاول جمع الأضداد فى وحدة ، وهل تستطيع أن تقرأ نظرات الحكيم فى هذه المحاولة ، فلا يرد على خاطرك قول هرقليطس — مثلا — بأن حقيقة الكون أضداد تتعادل : النهار والليل ، والشتاء والصيف ،

والحرب والسلم ، والشبع والجوع ، والبارد والحار ، والرطب واليابس ، واليقظة والنوم ، والحياة والموت ؟ أو هل تستطيع أن تقرأ تعادلية الحكيم ، ثم لا تذكر قول انباذقليس فى المحبة والكراهية ، فى التجاذب والتنافر ، اللذين يعلل بهما هذه الحركة الدائبة فى الكون من اتصال وانفصال يسببان كون الأشياء وفسادها ؟ أو هل تستطيع أن تقرأ تعادلية الحكيم دون أن يمثل أمام بصرك مبدأ « الوسط الذهبى » الذى يتوسط المتطرفات فيكون هو الفضيلة والحكمة ؟ وهكذا أخذت أصداء الفلاسفة اليونان الأقدمين تتردد فى سمعى كلما مضيت بين صفحات التعادلية .

فالتعادلية بصفحاتها التى لا تكاد تزيد على مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير ، سياحة تطوف بك على ميادين الفكر ، لتقف بك عند كل ميدان منها لحظة ، تعطيك فيها الجرعة المركزة الموجزة : التى ربما تفجرت فى نفسك بعدئـــذ تساؤلات وتأملات ! إنها سياحة تطوف بك على الميتافيزيقا والأخلاق والجمال والاقتصاد والاجتماع والسياسة والبيولوجيا وغيرها من فروع العلم والمعرفة ، ليدلك المؤلف عند كل واحد منها عن موقفه

إزاءه ، وكيف يراه بالعين التى تجمع الضدين فى فعل واحد موحد ، بديهى أن هذه السياحة السريعة لا تمكن الدليل من الوقوف الطويل عند كل منظر وكل أثر ليطنب القول ويسهب ، فهو مضطر أن يخطف الحجة خطفاً ، وإذا لم يكن هذا يكفيك فى إقناع العقل ، فالمعول عندئذ إنما يكون على القلب الذى قد ترضيه نغمة الإيمان فى إيجازها ما دامت تفوح بالصدق وبالعمق فى آن معاً .

أما المسألة الميتافيزيقية فيطرحها المؤلف فى سؤالين : يسأل أحدهما عن الإنسان إن كان فى هذا الكون وحيدا ؟ ويسأل الآخر عن حرية الإنسان فى هذا الكون ؟ وقبل أن يدلى الحكيم بجوابه عن السؤالين ، يقدم الرأى الذى يسود عصرنا ، ثم يعلله ، وبعدئذ ينقضه برأيه الذى يقيمه على « التعادل » .

فلقد أجاب العصر الحديث فعلا عن هذين السؤالين — فيما يقول أديبنا الحكيم « بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون ، وأنه إلٰه هذا الوجود ، وأنه حر تمام الحرية ، وبهذا الجواب الذى قضى على تعاليم الأديان ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية » ... ذلك هو جواب العصر ، وأما تعليله

ـــ كما يراه الحكيم ـــ فهو « أن التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت ، بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى » ، ويلحظ الحكيم أن هذا الاختلال فى التعادل بين العقل والقلب ، قد « كانت له نتيجته الطبيعية التى لا بد أن تلازم كل اختلال فى التوازن .. وهو القلق » .

هكذا شخص الحكيم اعتلال عصرنا ، وهكذا رد الاعتلال إلى علته ، ثم استنتج منه نتيجته الطبيعية ، وأردف موضحا كيف كانت العلاقة بين العقل والقلب ، تعادلا أو اختلالا للتعادل ـــ هى موضوع مسرحيته « أهل الكهف » ، وذلك عندما وُضعت تلك العلاقة فى إطار مشكلة الزمن . كما كانت هى موضوع مسرحيته « شهر زاد » ، وذلك عندما وضعت تلك العلاقة فى إطار مشكلة المكان . وينتهى الحكيم من ذلك كله إلى تحديد موقفه من السؤالين السابقين : فليس الإنسان فى هذا الكون وحيدا ومسيطرا سيطرة مطلقة ، بل هنالك إلى جانبه قوى غير منظورة ،

من شأنها أن تحد من حريته ، وإن تكن حافزة له على الكفاح نحو الأرق ، أما القوى غير المنظورة فإدراكها عنده يكون بإيمان القلب ، وأما فكرة الأرق التى تتطلب الكفاح ، فإدراكها يكون بالعقل ، ولا بد من إيمان وعقل يعملان معا فى تعادل .

وعلى هذه القاعدة الأساسية — قاعدة التعادل بين الإيمان والعقل — يستأنف الحكيم حديثه عن الحرية الإنسانية ؛ فيقول : إن الجانب العقلى من الإدراك كفيل وحده بأن يشهد بالحرية للإنسان دون الحيوان ، وما العقل إلا مشاهدات واستدلال من المشاهدات ، أما المشاهدات فى هذا الصدد فتقوم على أن الحيوان كله يولد مكبلا بمعرفة محددة معينة — هى الغرائز — يتصرف على أساسها فيما يصادفه من مواقف ، بغير حاجة منه إلى تعلم وتدريب ، على خلاف الإنسان الذى يولد عاجزا حتى عن المشى والكلام ، ولا يختزن فى جوفه حضارته كما يفعل النحل والنمل ، ولذلك كان علمه اكتسابا ، وكانت حضارته من صنعه وبإرادته . تلك هى المشاهدات ، وأما النتيجة التى تستدل منها فهى أن الحيوان مجبر والإنسان حر ، وعندئذ يتولد سؤال جديد

عن هذه الحرية الإنسانية أمطلقة هي أم مشروطة ومقيدة بحدود ؟ هي حرية — عند الحكيم — مقيدة بقوى خارجية « أسميها أحيانا القوى الإلٰهية .. حرية الإرادة فى الإنسان عندى إذن مقيدة ، شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة فى المادة » .

تلك هي النتيجة التي ينتهي إليها إذا نظر إلى الأمر بأداة العقل ، فإذا ما استدار إلى الأداة الإدراكية الأخرى — القلب — ليرى ماذا تقول فى ذلك ، وجد عندها النتيجة نفسها ، وهى أن الإنسان حر الإرادة حرية قد تتدخل فيها القوى الكونية المجهولة ، وإذن فهى نتيجة لا اختلاف عليها بين عقل وإيمان ، ومن ثم كانت هى إحدى الأفكار الرئيسية التى بنيت عليها مسرحياته ؛ أعنى أنها هى « مأساة الحياة كما تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية » ، فتستطيع أن تقول هنا إن « إرادة الإنسان فى كفة تعادلها الإرادة الإلٰهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادله الإيمان فى كفة » وبهذا التعادل بين القوى يعيش الإنسان . ويسوق المؤلف لمثل هذا التعادل أمثلة من « أهل الكهف » و« شهرزاد » و« سليمان الحكيم » وغيرها .

(٣)

تلك هى وقفة الحكيم الميتافيزيقية فى حقيقة الإنسان بالنسبة إلى الكون وإلى حريته بإزاء هذا الكون ، وهو موقف يترتب غليه موقفه الأخلاقى ، فما دام الإنسان حر الإرادة — ولو إلى حد محدود — فهو إذن مسئول عما يفعل ، وما دمت قد ذكرت المسئولية الخلقية فقد أثرت مشكلة الخير والشر « والخير والشر فى رأيى لا شأن لهما بالإنسان المفرد ؛ ولا وجود لهما إلا بالمجتمع » — وهو رأى نثبته هنا كما أراده صاحبه ، ولكنه رأى يدعو إلى شىء من التأمل قبل قبوله ، فهل يا ترى يجوز للمنعزل وحده فى جزيرة أن ينتحر مثلا ؟ فإذا قلنا : إن ذلك لا يجوز ، لأن فيه افتئاتا على الحياة التى ليس هو وحده صاحبها ، فقد قلنا بذلك إن الانتحار شر حتى ولو لم يكن المنتحر فرداً فى مجتمع — لكننى أترك أمثال هذه الوقفات الجانبية لأنصرف إلى رأى الحكيم كما أراده فى تعادليته . فالخير — عنده — لا يكون إلا فعلا إراديا يؤدى إلى نفع

الغير ، والشر هو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، أى أن أدبينا الحكيم — إذا نسبناه إلى إحدى مدارس الأخلاق — انتمى إلى مدرسة المنفعة ، التى تقيس الفعل نفسه . ولست أريد أن أستطرد هنا مرة أخرى لأقول إن القائلين بهذا المذهب هم عادةً الفلاسفة الذين يركنون فى عملية الإدراك إلى الحس والعقل وحدهما ، لا الفلاسفة الذين يعترفون بإدراك القلب ، إذ لهؤلاء قول آخر يجعل الخير والشر صفتين فى الأفعال نفسها بغض النظر عن نفعها وضررها ، وبغض النظر عن انعزال الإنسان أو اشتراكه مع غيره فى مجتمع .

ومهما يكن من أمر فالحكيم فى تعادليته يرى أن الخير والشر كليهما ضرورى ، ليعادل أحدهما الآخر ، ويضرب أمثلة من مسرحياته كيف جمع الطرفين فى كل شخصية من شخصياته ، وينتقل المؤلف إلى فكرة العقاب ، ليرى فيه رأيا طريفا ، هو أن فعل الضرر بالناس لا ينبغى أن يقابله سجن يحرم صاحبه من حريته ، إذ التعادل لا يكون بين الشر والحرية ، وإنما يكون بين الشر والخير ، ومؤدّى ذلك هو أن أجعل الشرير الذى فعل فعلا

ضارا يؤدى فعلا نافعا ليتعادل نفعه للناس مع ضرره .

وفكرة الخير والشر تنتج عنها فكرة الضمير ، وهنا يحاول الحكيم أن يحدد معنى « الضمير » بقوله « إنه شعور الذات بشر لحق الغير لم يقدَّم عنه حساب » فالمذنب الذى يعاقب على ذنبه لا يؤنبه ضميره على شيء ، كأنما الضمير لا يتحرك إلا إذا كان صاحبه مدينا إزاء المجتمع بضرر ألحقه به ولم يدفع مقابله من النفع ما يتعادل معه ، وهذا التعادل بين الضرر والنفع ؛ أى بين الشر والخير ، هو ما يسميه المجتمع بالعدل ؛ وإذن « فالعدل هو المظهر الأخلاقى للتعادل ، والضمير إذن هو الشعور بالعدل » ، وكما يقال إن للفرد الواحد ضميرا كذلك يقال إن للمجتمع بأسره ضميرا ، يؤدى المهمة نفسها ، أعنى أنه يؤرق المجتمع إذا ما أحس أنه أوقع الضرَّ بغيره ، أو أحس بأن طائفة منه أضرت بطائفة أخرى من أبنائه ، ومن هنا تقوم الثورات الاجتماعية لترد للمظلوم حقه .

(٤)

ويعتقد الحكيم أن مسألة الضمير هذه مقصورة على الأفراد داخل الجماعة الواحدة ، أما إذا انتقلت إلى السياسة وإلى الاقتصاد ؛ فإنك ها هنا تجد التعادل قائما بين الأطراف المتضادة ، قيامه فى دنيا الحيوان والنبات ، ففى السياسة لا بد أن تتعادل القوى ، ومحال أن تقوم فى العالم قوة واحدة بغير قوة أخرى تعادلها ، ويضرب المؤلف لنا أمثلة من التاريخ ، تدل على أنه حتى إذا قامت قوة واحدة ، تراها على الفور قد انقسمت على نفسها شطرين يتعادلان كما حدث للإمبراطورية الرومانية مثلا .

والأمر فى السياسة الداخلية شأنه شأن الأمر فى السياسة الخارجية ، لأنه فى السياسة الداخلية لا بد من تعادل بين الحاكم والمحكوم ، ولما استطاع الشعب فى العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ، نشأت الأحزاب التى يعادل بعضها بعضا ، « فإذا تغلبت طائفة فى النهاية وابتلعت كل ما عداها من الطوائف

والطبقات واتحدت فى قوة واحدة تشمل الدولة كلها ، فإن هذه القوة أيضا لا تلبث أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور ، وقد تخنق وتكبت وتهزم وتخفق ، ولكنها لا بد يوما أن توجد ، لأن قانون التعادل الذى نرى مظهره فى الشهيق والزفير هو الذى يعمل هنا أيضا ، ونرى مظهره فى وجود حركةٍ توازن حركة ، لأن هذا هو شرط الحياة » .

ذلك هو شأن السياسة — خارجيها وداخليها على السواء — أما فى الاقتصاد فإن قانون التعادل يفعل كذلك فعله بصورة واضحة فلا بد أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهيق والزفير ، وكذلك الأمر فى ضرورة التعادل بين الصادرات والواردات ، وبين الإيرادات والمصروفات ، وهكذا .

وإن فكرة التعادل هذه لنراها فى الطبيعة نفسها على صورة الفعل وردّ الفعل ، فكل فعل له الفعل الذى يردّ عليه ليحدث التعادل ، مهما يكن المجال الذى يحدث فيه ذلك الفعل .. إذن فالتعادل هو قانون الطبيعة ، وقانون الإنسان معاً .

(٥)

وهذا ينقلنا إلى الميدان البيولوجى لنرى أن عملية الحياة نفسها وتطورها قائمة على التعادل ، ففضلا عن التعويض الذى تلجأ إليه طبيعة الكائنات الحية لتوازن بجوانب القوة جوانب الضعف ، ولتعوض النقص هنا بالزيادة هناك ، فإذا كانت النحلة رقيقة الجناح ، فهى حادة الإبرة ، أقول إنه فضلا عن عملية التعويض هذه ، فإن الطبيعة فى تطورها تستخدم أداة الفعل ورد الفعل فى سيرها قدماً وإلى أعلى وأقوى ، فإذا رأيت الشجرة تنتقل من خضرة يانعة فى الربيع إلى صفرة ذابلة فى الخريف ، ثم إلى خضرة يانعة فى الربيع التالى وهلم جرا ، فقد تظن أن سيرها يتم فى خط مستقيم ، أو أنها تسير فى خط يدور على نفسه فلا يتقدم خطوة إلى أمام ، وبذلك لا يكون ثمة « تطور » ، لكن حقيقة الأمر هى أن هذه الدورة تلازمها دفعة إلى الأمام يظهر أثرها فى الأجيال القادمة من الكائن الحى ، وحتى أجرام السماء فى سيرها تتحرك فى هذين

الاتجاهين معا : تدور حول نفسها وحول الشمس ، لكنها فى الوقت نفسه « تسير فى الفضاء إلى الأمام فى إطار المجموعة الشمسية بأكملها » ، وقل شيئا كهذا فى الإنسان وحضارته ، فقد يتعاوره الظلام والنور فى حركة كحركة الليل والنهار ، ولكنه مع ذلك يسير إلى الأمام خلال دورات من الفعل وردّ الفعل ، وإنك لتجد هذه الفكرة عن التطور فى مسرحية شهرزاد .

(٦)

ويطبق الحكيم فكرة التعادلية فى ميدان علم الاجتماع ، كما طبقها فى ميادين الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة والاقتصاد والبيولوجيا ، فيجىء التطبيق هنا على صورة التضاد بين الفكر والعمل تضادا لا بد أن ينتهى إلى التعادل بينهما ، ولولا أنى أوثر ألّا أعرقل سير الفكرة التعادلية باعتراضات جزئية ترد على خاطرى كلما مضيت فى صفحات هذا الكتاب ، لوقفت هنا وقفة أناقش

فيها هذه القسمة إلى فكر بلا عمل وعمل بلا فكر — هذا إذا أخذنا الفكر الذى بمعناه يأبى أن يدخل فيه أحلام اليقظة وشطحات الوهم — لكن الحكيم على كل حال يضاد بينهما ، إلى الحد الذى قد ينتصر أحدهما على الآخر فيخضعه لسلطانه ، وهنا تجد إما أن رجل الفكر خاضع لرجل العمل ، وإما أن تجد رجل العمل خاضعا لصاحب الفكر ، ولكن هذا التضاد قد يقف عند حد التعادل بين الضدين ، فلا خضوع لجانب منهما للجانب الآخر ، وعندئذ يتم التعادل وتصلح الحياة .

وإن التعارض بين العمل والفكر ، لهو الذى تراه — فيما يقول أديبنا الحكيم — فيما نشأ من صراع على طول التاريخ بين الملوك من جهة ورجال الدين من جهة أخرى ، ولئن استطاع الفكر فى صورته الروحية هذه أن يصمد لأصحاب السلطان ، فقد عجزت صور الفكر الأخرى كالفلسفة والأدب والفن ، عن هذا الصمود ، ولذلك ترى أصحابها قد ذلوا لأصحاب السلطان ، وهنا يقترح الحكيم اقتراحا جميلا : وهو أن سر ضعف رجال الفكر أمام أصحاب الحكم ، هو تفككهم ، ولو تكاتفوا

وتآزروا ، لتكونت منهم قوة تعادل قوة الحكام . ولنلاحظ أن رجال الحكم فى عصرنا هذا ، برغم أنهم جاءوا إلى مراكز الحكم بانتخاب الشعب ، إلا أن شعور الجفوة ما زال قائما بين رجل التنفيذ من جهة ورجل الفكر من جهة أخرى ، لما يخشى أن يواجهه رجل الفكر من نقد وتوجيه .

ويستطرد الحكيم هنا ، فيقول إن عصرنا الراهن قد ابتكر طريقة يستطيع بها رجل السلطان أن يسكت رجلَ الفكر ، فهو اليوم لا يعذبه ولا يسجنه كما كان يفعل الحكام السابقون ، لكنه يستدرجه إلى حظيرة السياسة العملية ، فيلغى بذلك وجوده لأنك إذا أدمجت الفكر فى العمل لم يعد فكرا ... « فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر ، وأن يصون وجوده الذاتى حرا مستقلا » .

ولكن ذلك لا يعنى أن « ينعزل » الفكر ، فاستقلال الفكر شيء وانعزاله شيء آخر ، إذ المنعزل لا يؤثر فى غيره ولا يتأثر به ، فكأنه معدوم بالنسبة إلى الآخرين ، ولا فرق بين فكر ينعزل عن العمل وفكر يبتلعه العمل ويذيبه ، لأنه فى كلتا الحالتين مفقود

معدوم ، أما استقلال الفكر عن العمل ــ بغير انعزال ــ « فهو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة فى مواجهة العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه » .

(٧)

وأخيرا يجىء ميدان الأدب والفن ، فهاهنا يكون التعادل بين التعبير والتفسير ، بين الأسلوب والموضوع ، « فالأثر الأدبى أو الفنى لا يكتمل خلقه ولا ينهض بمهمته إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة » لكن هذا قول يريد شرحاً ، فيشرحه المؤلف شرحاً أسهب فيه ، أما التعبير فيقصد به شيئا غير « الشكل » لأنه الشكل مضافا إليه شىء آخر ، هو الموضوع نفسه الذى سيق فيه ، التعبير هو الشكل والشىء الذى يتشكل فيه ، هو الأسلوب والموضوع معاً ، فإذا تعادل الأسلوب والموضوع ، وإذا تعادل الشكل والمضمون ، كان لنا بذلك « تعبير » قوى ، أما إذا طغى أحد الطرفين ، كأن نزخرف

الأسلوب ولا موضوع ، أو أن نضع الموضوع العظيم فى شكل سقيم ، ففى كلتا الحالين لا نظفر بتعبير له شأن فى دنيا الأدب والفن .

ولئن كان التعبير بالمعنى الذى يتعادل فيه الشكل والموضوع هو — كما يقول الحكيم — « كل شىء فى نظر الفن » ، فهو ليس كل شىء فى نظر التعادلية ، « فقوة التعبير عند التعادلية يجب أن تقترن فى الأدب والفن بقوة التفسير » ، والمراد بالتفسير ذلك الضوء الذى يلقيه الأديب أو الفنان على موضع الإنسان فى الكون ومكانه فى المجتمع ، أو بعبارة أخرى ، فإن التعادلية تتطلب من الأدب والفن أن يضيف إلى عالمَىْ المتعة والجمال ضوءا كاشفا يهدى الإنسان فى طريقه إلى الكمال ، أعنى أن يكون للأدب والفن « رسالة » ، فإذا اكتفينا بالتعبير وحده ، كان لنا بذلك « فن للفن » ، وإذا اكتفينا بالتفسير وحده ، كان لنا بذلك فن ملتزم برسالته وكفى ، لكن المطلوب تعادل بين خصائص الشكل الأدبى والفنى ومضمون الرسالة المراد نشرها فى آن معاً .

وهنا يجد الكاتب نفسه أمام موضوع الالتزام وجها لوجه ،

ويرى لزاماً عليه أن يرى كيف يكون التعادل بين حرية الأديب والتزامه ، وفى رأيه أن الالتزام واجب ، شريطة ألّا يكون مصدره غير ذات الفنان ، لأنه لو جاء من خارج الفنان ، كان إلزاما ، وفقد الأديب حريته ، وفقد الأدب كيانه . لا بل التزام الأديب برسالته هو ، لا ينبغى أن يطول به الأمر ، إذ لا بد من مراجعة الرسالة المراد تبليغها آنا بعد آن ، وإلا أصبح الأديب عبدا لشىء مضى أوانه وتغيرت عليه الظروف .

* * *

ألا إن فلسفة الأمة هى مجموع فلسفات أبنائها الذين استطاعوا أن يتخذوا موقفا فكريا ، واستطاعوا أن يصوغوا ذلك الموقف فى عبارة يتبادلها الناس ، ويحملها الزمن إلى الأجيال الآتية . وإذا كان هذا هكذا ، فإننا لن نذكر الفلسفة العربية بعد اليوم ، إلا وفى أذهاننا فكرة التعادلية التى بسطها أديبنا الحكيم فى كتاب له بهذا العنوان .

زكى نجيب محمود

التعادلية

هذه الصفحات ليست سوى إجابة عن سؤال ...

إجابة موجزة عن سؤال مهم ، وجّهـهُ إلىّ قارئ جاد ...

وقد جعلت إجابتي للنشر ، لأنها قد تلقى ضوءا على كتبى التى نشرت ...

ثم هى بعد ذلك تحمل تحديدا لوضع يمكن وصفه بأنه مذهبى فى الحياة والفن ...

ت . ا

تسألنى ما هو مذهبى فى الحياة والفن ؟... وتقول : إنك قرأت كل كتبى وخرجت منها بعقيدة : هى أنها فى مجموعها تحاول تفسير « الإنسان » فى وضعه العام من الكون بزمانه ومكانه ، وفى وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته ، وأن هذا التفسير يدل على اتجاه ، يمكن وصفه بالمذهب ، لو كان فى المقدور استخلاص أسسه وقواعده ، وهو ما تسألنى أن أقوم به .

أعترف أنى سررت لقولك هذا ، وعجبت ... سررت : لأنى أحب القارئ الذى يستكشفنى ... وعجبت : لأنى لم أفكر حتى اليوم فيما فكرت أنت فيه ... ولعل السبب هو أنى أكره الفن الذى يبنى على مذهب ، ولا بأس عندى أن يبنى المذهب على الفن ... لأن الفن هو الكاشف الحر عن أسرار الكون ... وهذه الحرية فى الإحساس والشعور والبحث والتفكير كانت هى وسيلتى الأولى ... أما وقد كتبت ما كتبت بهذه الحرية ، فإن المذهب الذى يمكن أن يستخلص من هذه الكتابات لا يضيرنى

ولا يقيدنى ... وما دمتَ تدعونى أن أبحث عن هذا المذهب أو هذا الاتجاه بين هذه الكتب فلن أحجم ... سأتحدث إذن على أساس فكرتك :

أولا :

وضع الإنسان فى الكون .

ثانيا :

وضع الإنسان فى المجتمع .

ما هو الإنسان أولا ؟... هذا سؤال قديم قدم التفــــكير الآدمى ... جديد ما بقى التفكير الآدمى فى هذا الكون ... فالإنسان ــ مضافا إليه التفكير ــ يولدان حتما هذا السؤال ... وما دام السؤال قد ألقى فلا بد له من جواب ... وهذا الجواب هو كل ما تحاول صياغته ، فى أثواب متجددة جدة الأيام والليالى ، كل علوم الأرض وفلسفاتها وفنونها وآدابها ، وهذه المحاولات لا يدرى أحد مصيرها؛ لأن الجواب لا يمكن أن يكون قاطعا ما دام السؤال غامضا... والسؤال غامض؛ لأنه وليد أبوين غامضين... وهما : الإنسان والتفكير ... وإذا كانت القرون تولى والسؤال يلقى فى كل يوم : ما هو الإنسان ؟... ما هو التفكير ؟... فهل نطمع فى حل نهائى لهذه الأسرار ؟...

ما أظن أحدا يأمل فى حلول نهائية أو إجابات قاطعة ...

إنما المطلوب هو الاجتهاد فى الملاحظة والتفسير ... كلٌّ من زاويته ... وكل بوسيلته ... وكل بأسلوبه .

هذا كل ما نستطيع ... وهذا كل واجبنا ... ولا ينبغى أن نترك الوجود دون أن نلقى على أنفسنا السؤال : ما هو الإنسان ؟... وأن نحاول إيجاد تفسير ...

وهنا يدخل الفرض لمعاونتنا ... يجب أن نفترض حقائق نسلم بها حتى نستطيع السير فى هذا الليل البهيم ... ولولا الفرض فى الفلسفة والعلم لما كان هناك تقدم نحو أى تفسير لأية ظاهرة من الظواهر .

فلأفترض — مؤقتا — أن الإنسان لا يحتاج إلى تعريف: إنه ذلك المخلوق المعروف لنا جميعا ... الذى يعيش فوق هذه الكرة الأرضية .

ولأفترض — مؤقتا — أيضا أن التفكير هو حركة الوعى الذاتى فى اتجاه منتظم متسلسل : أى منطقى .

هذا المخلوق المفكر الذى يسأل عن حقيقته ... ما صفاته ؟... أول صفة لا تقبل الشك ؛ هو أنه يعيش على هذه الأرض ... إذن لا بد أن تكون بينه وبين الأرض صلة ... أو مشاركة فى صفة .

ولكن ما هى الأرض ؟...

خرجنا من سؤال عسير إلى سؤال أعسر ...

فلنقنع بأهم صفة للأرض ... وهى أنها كرة وتعيش بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم ... هى الشمس ... فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس ، أو ضاعت فى الفضاء .

التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض .

فهل صفة التعادل هى أيضا الحقيقة الأولى فى كيان الإنسان ؟...

فلننظر أولا كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادى ؟... إنه يعيش طبعا بالتنفس .

ما هو التنفس ؟... هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير ... فإذا اختل هذا التعادل ؛ بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى ، طاغيا على الزفير ، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائرا على الشهيق ، وقفت حياة الإنسان ... فإذا تركنا التركيب المادى إلى التركيب الروحى ، وجدنا عين القانون .

فالتركيب الروحى للإنسان له هو أيضا شهيقه وزفيره ، فيما

يمكن أن نسميه إلفكر والشعور ... أو بعبارة أخرى : العقل والقلب .

والحياة الروحية السليمة هي أيضا تعادل بين الفكر والشعور .

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو إلا اختلال في هذا التعادل : إما بتضخم الشعور تضخما يلغي إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر ، فيرتد الإنسان طفلًا في أعوامه الأولى ... وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور ، فترتبك أداة الإدراك في الإنسان .

فالإنسان إذن كائن متعادل ماديا وروحيا ... وهو ليس وحده الذي ينطبق عليه هذا التعريف ... كل الكائنات التي تحملها هذه الأرض المتعادلة ، تتعادل هي أيضا كأمها في تركيبها ، تعادلا هو سر حياتها .

فالحيوان والنبات والجماد ... كلها تخضع لقانون « التعادل » في تركيبها البيولوجي والكيميائي والطبيعي ... حتى في نظر العلم الحديث الذي غير معتقدات القرن التاسع عشر حول « المادة » ، وبين بنظرياته عن « المادة » و« المجال » أن ما نصفه

بالمادة ليس سوى «الطاقة» مركزة تركيزا شديدا ، كما أنه صاغ أيضا القوانين الجديدة فى مجال الجاذبية بين جزيئات المادة ... والجاذبية هى أساس التعادل ... لأن الجاذبية تعنى وجود قوتين ... والتعادل يعنى المحافظة على بقاء القوتين ، دون أن تتلاشى إحداهما فى الأخرى .

ولنترك الإنسان من ناحيته المادية لرجال العلم ، فما يهم رجال الأدب والفن هى الناحية الروحية فى الإنسان ... وإن كانت الناحيتان متداخلتين أحيانا ؛ بل إن من الصعب — وخاصة فى نظر المعرفة الحديثة — فصل ما هو مادى عما هو روحى ... بل أصعب من ذلك إيجاد تعريف دقيق لمعنى كلمة « روحى » ... ولكن المقصود بالطبع هو المعنى الشائع فى الأدب والفن لهذه الكلمة ... المعنى الذى يراد به الإشارة إلى حياة الإنسان الفكرية والشعورية .

فإذا أراد الأدب أو الفن تفسير الإنسان ، فإنما يعنى إلقاء الضوء على موقفه الفكرى والشعورى تجاه هذا العالم الذى وجد فيه ... عالم الزمان والمكان والماضى والحاضر والمستقبل والبيئة

والمجتمع إلخ ...

ووسيلة الأديب أو الفنان فى تفسير الإنسان مغايرة لوسيلة العالم والفيلسوف ... فهو لا يلجأ إلى منهج بحث أو تحليل ... ولكنه يلجأ إلى موهبة خلق ومحاكاة ... فهو ينشئ صورة للإنسان ... أو على الأصح صورة لتفكيره وشعوره قد تحوى من السمات والصفات الظاهرة والخفية ما يعين العلماء والفلاسفة على استنباط الحقائق والقوانين .

على أن موهبة الخلق والمحاكاة لا تكفى وحدها للقيام بهذا التفسير والتصوير ، إذا لم تستمد غذاءها من جوهر العلوم والمعارف السائدة فى عصر الأديب أو الفنان .

ففكرة « أبى العلاء » أو « شكسبير » عن الإنسان هى فى نفس الوقت انعكاس لما كان سائدا فى عصر كل منهما من ثقافة ومعرفة ... ولن يصل الأديب أو الفنان إلى تحديد موقف الإنسان فى زمانه وعالمه ومجتمعه وعصره إذا انقطعت صلة الأدب أو الفن بالعلوم والأفكار المحيطة به .

على أن مهمة الأديب أو الفنان ليست مجرد تصوير هذه العلوم

أو تجسيد هذه الأفكار ؛ بل إن واجبه اعتبار هذه العلوم والأفكار مادة غذائية تنفعه فى بناء الإنسان من جديد ، بناء حرا ينبع وحيه من صميم موهبته الخاصة فى الخلق والملاحظة والمحاكاة ...

وعندما أقول المحاكاة لا أقصد تقليد المظاهر السطحية ؛ بل أقصد محاكاة الطبيعة فى قوانينها الخفية ، التى يستطيع الفنان اقتناصها بشبكة إحساساته الدقيقة .

تلك هى وسيلة الأدب والفن فى تفسير الإنسان .

قد تسألنى بعد ذلك :

ما تفسير الإنسان فى نظر الأدب والفن فى عصرنا الحاضر ؟...

هذا سؤال يحتاج فى الإجابة عنه إلى مجلدات ، تملأ بالآراء والمذاهب والاتجاهات التى شغلت الأذهان فى هذا القرن الأخير .

وليس هذا موضوع الحديث فى ذلك ... فالمطلوب منى فى إجابتى هذه إليك أن أعرض تفسيرا للإنسان مستخرجا من كتبى ... أليس هذا غرضك ؟...

لن أرجع إلى كل الكتب ... ولن أسهب فى التفصيلات ... فما أنا بصدد بحث عام ... إنما أنا أبدى وجهة نظرى الخاصة لتكون نقطة بداية لمن يعنيه الأمر ...

ما هو وضع الإنسان العام فى هذا الكون كما تصورته ؟...

هذا السؤال يستوجب التقسيم إلى مسألتين تعرضان دائما فى كل عصر :

المسألة الأولى : هل الإنسان وحده فى هذا الكون ؟...

المسألة الثانية : هل الإنسان حر فى هذا الكون ؟...

الجواب عن هاتين المسألتين يترتب عليه تحديد تبعات الإنسان ، وتعيين مدى نشاطه ونتيجة كفاحه .

ولقد أجاب العصر الحديث فعلا بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون ، وأنه إلـٰه هذا الوجود ، وأنه حر تمام الحرية ... وبهذا الجواب ـــ الذى قضى على تعاليم الأديان ـــ ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية ... وعلى الرغم من بقاء الدين فى كثير من البلاد المتحضرة ، ماضيا فى دعوته ، محافظا على مظاهر قوته : إلا أن الناس جميعا ـــ حتى المتمسكين بالطقوس وروح النصوص ـــ قد سيطرت عليهم النزعة المادية ، دون إدراك منهم ، لأن جو العصر كله قد تشبع بها تشبعا لا تجدى فى صده النوافذ المغلقة ولا الأبواب الموصدة . فهواؤه يتسرب إلى النفوس وهى لا تفطن ...

ما السبب فى ذلك ؟

السبب واضح : وهو أن التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أى بين نشاط

التفكير ونشاط الإيمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى ... فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله ووسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقى محصورا فى أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الإنسانى ، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث فى الجانب الأرجح ، ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده . ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون تبعا لحرية فكره ، وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والاختبار . ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أو وجودا آخر غير وجوده ، فهو كائن وحده فى هذا الكون ..

وكان لهذا الاختلال فى التعادل نتيجته الطبيعية التى لا بد أن تلازم كل اختلال فى التوازن ... وهو القلق . فالقلق السائد فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب ... بين الفكر والإيمان ...

وهذا الاختلال فى التعادل لا بد أن يصحح نفسه بنفسه على مدى الوقت ... وقد ظهرت فى هذه الأيام بعض الدلائل . فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الإنسان الكائن وحده فى هذا الكون ... فهو يتشوق حنينا إلى أحد غيره ... إلى كائن أرق ... ولم يسعفه الدين بإطار جديد لهذه الفكرة التى جعل يحن إليها ... فبقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة ولكن فى محيط العلم العقلى الذى لم يزل مسيطرا على فكره . وما الاهتمام بالأطباق الطائرة اليوم ، وأمل الناس فى أن تكون آتية برسالة من عالم أفضل وكائنات أرقى إلّا منفس عام يلطف الشعور الذى جف بجفاف المنبع الدينى ، ويريح الإنسان من قلقه ، ويخرجه قليلا من ضيقه بوحدته فى هذا الكون ...

هذا التعادل واختلاله بين العقل والقلب فى إطار مشكلة الزمن كان موضوع مسرحيتى « أهل الكهف » . كما أن هذا التعادل أيضا واختلاله بين الفكر المطلق ممثلا فى « شهريار » والإيمان العاطفى ممثلا فى « قمر » متحركا فى إطار مشكلة المكان ودورته كان موضوع مسرحيتى « شهرزاد » ...

على أن لقلق الإنسان فى العصر الحديث سببا آخر متصلا بأمنه المباشر ، فهو يخشى فى كل لحظة دماره المادى بيده هو نفسه . هذا السبب هو فى عين الوقت نتيجة من نتائج انتصاراته العقلية والعلمية . فهو قد أصبح قادرا قدرة مادية هائلة ساحقة ، يمكنها فى أى وقت أن تفلت من يده ، وإذا أفلتت فقد هلك ... هذه القدرة أو القوة لا يلجمها غير حكمته ... وهو لا يضمن كثيرا هذه الحكمة . ومن هنا جاء قلقه ... قلقه على سلامته وكيانه . فهو يعيش من يوم إلى يوم ، فى هذا العصر الحديث ، ناظرا إلى ميزان التعادل بين القوة والحكمة ، بعين زائغة شاردة ...

هذا التعادل بين القدرة والحكمة ، وثباته واختلاله كان موضوع مسرحيتى « سليمان الحكيم » .

من كل ذلك تتضح وجهة نظرى فى قضية الإنسان . فأزمة الإنسان فى هذا العصر هى عندى نتيجة اختلال فى تركيبه التعادلى ...

وعلى ذلك يسهل استنتاج جوابى عن السؤالين السابقين .

هل الإنسان وحده فى هذا الكون ؟... وهل هو فى هذا الكون

حر ؟...

لم أنشر رأيا صريحا فى هذا المعنى ، ومع ذلك فقد أصبح لى ، فيما يظهر ، رأى فى هذا الشأن ، لدى بعض النقاد الأجانب الذين يعنون عادة باستخلاص هذه الاتجاهات من الآثار . فأغلبهم ذكر فى تعليقاته وبحوثه عن مسرحياتى العشرين التى ترجمت : أن الفلسفة المسيطرة عليها هى قدرة الإنسان المحدودة أمام قدره ، وأن مصير الإنسان عندى مرتبط دائما بكفاحه أمام القوى غير المنظورة ... وشذ بعضهم عن ذلك قائلا : إن المعتقدات عندى قد تحررت من قدسيتها لتلبس رداء إنسانيتها ، ولكن الإنسان فيها ظل قلقا مهددا بقوة خفية .

مهما يكن الرأى فالمفهوم مما كتبه هؤلاء أنهم استنتجوا من خلال مسرحى أنى على أى حال لا أؤيد فكرة وحدة الإنسان أو حريته المطلقة فى هذا الكون ...

وهذا ما لا أنكره ...

فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الإنسان ليس وحده فى هذا الكون ... وهذا هو الإيمان . وليس من حق أحد أن يطلب إلى

الإيمان تعليلا أو دليلا . فإما أن نشعر أو لا نشعر ، وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئا ... وإن أولئك الذين يلجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الإيمان ، إنما يسيئون إلى الإيمان نفسه . فالإيمان لا برهان عليه من خارجه . إنى أومن بأنى لست وحدى ... لأنى أشعر بذلك ... ولم أفقد إيمانى ، لأنى رجل متعادل ...

ولكننى من جهة أخرى أفكر بعقلى ، لا لكى أدعم إيمانى بأنى لست وحدى ... بل لأعرض المسألة أمام تفكيرى بعيدا عن الإيمان ...

هل يقبل العقل فكرة الكائن الأرقى ؟... أى الأرقى من الإنسان ؟...

إن الحيوان حتى فى أعلى مراتبه لا يدرك فكرة الأرقى ... إنه يدرك فكرة الأقوى ... فالعالم بالنسبة إليه إما مخلوقات ضعيفة يتغلب عليها ، وإما مماثلة له فى القوة ، وإما أقوى منه يتحاشى مواجهتها ... والقوة عنده بدنية بحتة ...

أما الإنسان فيستطيع بعقله أن يدرك فكرة الأرقى ... أى الأقوى ذهناً وروحا ...

وهو يستطيع أن يرى فيما حوله آثار أعمال تدل على ذهن أقوى وروح أرقى ملايين المرات من ذهنه وروحه ... فما الذى يمنعه عندئذ من قبول فكرة وجود الأرقى ؟...

إن الحيوان قد قبل الفكرة فى محيطه المادى البدنى فتحاشى قتال الأقوى ... ومعنى هذا التحاشى هو إيمانه بوجوده ... فلماذا لا يقبل الإنسان الفكرة فى محيطه الذهنى الروحى ، ويؤمن بوجود الأرقى ؟...

إن عقلى يقر الفكرة ...

ولكنه لا يستطيع أن يصنع لها صورة جدية واضحة تتفق مع جلالها .

لأن العقل لا يصنع غير الصور التى تتمشى مع منطقه ، ومنطقه قائم على فروض ومشاهدات وملاحظات مما يقع فى نطاق اختباراته . فهو إذن لم يصنع للأرقى غير صورة لما يعرف ، مجسمة غاية التجسيم فى عرفه ونظره ... وهذا لن ينتج غير صورة مشوهة تهبط بالفكرة ... ولعل هذا سبب من أسباب الإلحاد .

فنحن نسأل العقل أن يصنع لنا صورة لله فيخفق ، فبدلا من أن

نضحك ونهزأ بالعقل ، نضحك ونهزأ بفكرة : الله !...

فلنؤمن إذن بالقلب وحده ... تلك قونه . ولندع العقل يفكر في مجاله وحده ... تلك أيضا قوته ...

وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الإنسانية .

بقى أن أجيبك : هل الإنسان حر فى هذا الكون ؟... ما من جواب يمكن أن نتلقاه إلا من القوتين المنوط بهما مهمة الإدراك والوعى ؛ وأعنى العقل والقلب ... كل منهما يجيب على طريقته وبأسلوبه ووسيلته ... فالعقل قبل أن يبدى رأيه سيبحث ويلاحظ ويقارن ويستنتج ، سينظر إلى الطير وهو يبنى عشه هذا البناء المحكم ، وإلى النحل وهو يقوم بأعماله العجيبة فى الخلية ، ويتساءل : فى أى مدرسة يتعلم الطير والنحل هذه الأعمال البارعة ؟ فتجيبه الملاحظة : إن الطير والنحل وأكثر الحيوان والحشرات لا تتعلم ولا تتدرب ، ولكنها تولد وفى أعماقها هذه المعرفة المخزونة فيها — تلك التى تسمى « الغريزة » فتدفعها دفعا وتحركها تحريكا لصنع هذه الأعاجيب ... عندئذ يتساءل العقل : والإنسان ؟ لماذا يولد ولا يستطيع هو أيضا أن يبنى بيته الجميل ويغرس بستانه الرائع بغير تعليم ولا تدريب ؟... ما بال الإنسان يولد عاجزا حتى عن المشى والكلام ولا يختزن فى جوفه

حضارته كالنحل والنمل ؟ — ما باله يولد متروكا لنفسه ، مجردا من الغرائز الإنشائية ، محتاجا إلى اكتساب معارفه بنفسه خطوة خطوة ؟...

نعم ... الحيوان يولد مكبلا بالمعرفة المتحجرة أى الغريزة ، والإنسان يولد مجردا ... أى حرا !... وعليه هو أن يكتشف المعرفة من جديد ، فى كل مرة يولد ... إن المعرفة المتحجرة عند الحيوان ، تلك التى تولد معه ، هى معرفة مفروضة عليه فرضا ، لا يستطيع أن يتجنبها ولا أن يحيد عنها ولا أن يبدل أو يغير فيها ، ولا أن يجدد فى لبها أو شكلها ... إن خلية النحل هى خلية النحل منذ وجد وإلى أن ينقرض ... وليس فى مقدور النحل أن يصنع خلية على صورة أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامدا ، أو يعيش ليصنع شيئا آخر ...

تلك هى الجبرية التى لا حرية معها...

أما الإنسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقيده ويكبله ويجبره على صنع شىء بعينه طول حياته ، على نحو خاص لا يملك أن يتجنبه أو يغيره أو يحيد عنه ... إن النحلة تولد وهى تعرف

بالضبط ماذا هى صانعة فى حياتها لأن مهمتها معروفة محددة ...

أما الطفل فيولد ولا أحد يدرى ماذا هو صانع فى حياته ... لأن مهمته ليست معروفة ولا محددة كمهمة النحلة والنملة ... بل إن سلوكه فى الحياة هو الذى سيحددها ...

يستنتج العقل إذن من هذه الملاحظة والمقارنة أن الجبرية التى فرضت على النحل والنمل لأداء عمل معين على وجه معين ، لم تفرض على الإنسان الذى ترك حرا يواجه مصيره ...

ولكن هذه الحرية التى تركت للإنسان ، هل هى مطلقة ؟... هل هى مقيدة ؟...

ربما استطاع العقل أن يوافق بلسان العلم — وهو أحد مولوداته وأدواته — على أن حرية الإنسان مقيدة ، قياسا على حرية الحركة بالنسبة إلى المادة ... فقد قال لنا « نيوتن » ومن قبله « جاليليو » : إن الجسم المتحرك يظل يتحرك فى اتجاهه إلا إذا تدخلت فى ذلك قوى خارجية ... ذلك قانون القصور الذاتى المشهور بالنسبة إلى المادة ، وقد يصح أيضا بالنسبة إلى حرية الإنسان ... أى أن حرية الإنسان تظل تتحرك فى اتجاهها ، إلا إذا

تدخلت فى أمرها قوى خارجية ...

وهنا ينبغى أن نسأل العقل أو العلم هذا السؤال المعضل ما هى هذه القوى الخارجية ؟...

فى نظر القلب أو الإيمان الجواب بسيط ... ولكن العقل سيحاول أن يبحث عن الجواب فى عالمه المادى دائما ... أى أنه سيتحاشى الاقتراب من منطقة الشعور الآدمى الداخلى الذى لا يعلل بالمنطق ... سيقول العقل إن القوة الخارجية هى مجموع الإرادات الأخرى المتعارضة أو المقاومة ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ... وسواء كانت فى مجتمع معقد أو مجتمع بسيط .

وقد يلجأ العقل إلى العلم ليعقد المقارنات بين قضايا انحراف الإبرة المغناطيسية ، وبين انحراف الإرادة الإنسانية ، وقد يشبه مجال حركة الإنسان فى مجتمعه بالمجال الكهربى المغناطيسى فى المادة ، ليخرج من كل ذلك بتفسير يقبله منطقه المادى للقوى الخارجية المؤثرة فى حركة الحرية البشرية ...

وقد يقتنع العقل ... وحتى إذا لم يقتنع فهو سيمضى يتصيد الأدلة والبراهين داخل نطاق عالمه المعهود ...

أما القلب فهو مقتنع بغير دليل ولا حاجة إلى الأدلة فى عالم القلب والإيمان ... لأن الدليل هنا مفسد للاقتناع ... بل إن الاقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب ... لأن معناه أنه جاء بعد شك ... والقلب لا يشك لأنه لا يفكر ... إنه يشعر ... إنه فجأة يضيء كمصباح الكهرباء ...

فالقلب الإنسانى يشعر أحيانا شعورا لا تعليل له بأنه ليس وحيدا ولا حرا فى هذا الوجود ... ألا يحدث أحيانا أن تشعر كأن شخصا ما فى مكان ما ينظر إليك ؟... فإذا رفعت رأسك وبحثت وجدت فعلًا أن شعورك صادق !... ألم تلاحظ مرة أو مرتين فى حياتك أن حادثاً معيناً وقع لك فى ظرف معين فغيَّر مجرى حياتك على وجه معين ؟... وتحاول أن ترد ذلك إلى المصادفة فتعجز ، لأن تلك الإرادة الخارجية تدخلت بصورة منظمة منسقة تنم على وعى يعقل ما يفعل ويعنى ما يريد ، لإحداث نتائج مقصودة بالذات ، ما كانت تحدث لولا هذا التدخل الذى لم يكن متوقعا ؟... إرادة خارجية لها كل عناصر الإرادة الرشيدة الذكية تهبط على إرادتك العادية فتغير اتجاهها وترسم لها طريقا

جديدا !... إن عقلك أحيانا مهما يبلغ فى منطقه من الصلابة والدقة ، ليأبى أن يخضع مثل هذا الحدث للتفسير العقلى المعتاد بالسهولة المعتادة ...

إن المناصرين للعقل والعلم يكتفون فى مثل هذه الحالة بهز رؤوسهم !...

أما المكابرون والمتعصبون فهم ماضون فى الإنكار ؛ لأن العقل وحده عندهم هو الإله ...

أما أنا فأعترف بالعقل والعلم وحرية الإنسان ... ولكن لا يمكن أن أنكر القلب والإيمان ... إنى لا أعيب على العقل أن يشك ... لأن وظيفة العقل هى الشك ... أى الحركة ... فإذا انقطع عن الشك فى بحوثه وقوانينه ، ووقف عن الحركة فى تقليب الحقائق والنتائج فقد شل عمله وانتهى أجله ...

أما القلب فوظيفته الإيمان : أى الثبات ...

فلنترك للقلب إذن أمر تلك الحقيقة الثابتة التى تستعصى على كل حل وتستبهم على كل تعليل ...

موقفى إذن من حرية الإنسان هو الآتى :

الإنسان عندى حر فى اتجاهه حتى تتدخل فى أمره قوى خارجية أسميها أحيانا القوى الإلـٰهية ... حرية الإرادة فى الإنسان عندى إذن مقيدة ، شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة فى المادة ...

والحرية المقيدة فكرة لا تروق لأكثر الأوروبيين اليوم لأنهم — كما قلت — قد ثقلت بهم كفة العقل والعلم والفكر التى تؤلّه الإنسان وحده فى هذا الكون ...

وقد تجلى ذلك فى تعقيب أولئك النقاد الذين أشرت إليهم ... فقد رأى أحدهم أن موقفى وإن كان لا يتعارض كثيرا فى أحكامه النهائية مع ما جاءت به الأجيال العصرية ، إلا أنه يعبر عن عقيدة تهزأ بها أوروبا بغير حق — كما قال — ؛ هى مأساة الحيـــاة كما تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية ... على أن الحقيقة التى أحب أن تستقر فى وضعها الصحيح هى أنى « تعادلى » أى أن إرادة الإنسان فى كفتها تعادلها الإرادة الإلـٰهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادله الإيمان فى كفة ...

بهذا التعادل يعيش الإنسان ويعمل ...

غير أنى قبل أن أبلور أفكارى وأصوغها بما يطابق هذه النظرية

« التعادلية » قد حاولت تفسير موقفى من حرية الإنسان ووحدانيته ... فقلت فى كتابى « فن الأدب » :

« هذا الموقف من قضية العصر ، قد وقفته وتأملته ... فالإنسان عندى ليس إلٰه هذا العالم ... وهو ليس حراً ... ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلٰهية ... هذه الإرادة التى تتجلى للإنسان أحيانا فى صور غير منظورة من عوائق وقيود على الإنسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها ... فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات ، فطريق النبى ليس معبدا ، ولكنه يجاهد فى تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناسِ ...

إن قضية العصر اليوم ، وهى التى تقوم على حرية الإنسان ، سواء باعتباره فردا أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتتلاقى فى أمر واحد هو : إنكار الله ... إنكار القوى غير المنظورة التى تؤثر فى مصير الإنسان ...

على أن شعورى بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة فى مصيره ليس مؤداه التشاؤم ...

كما أنى لست أرى فى النظريات الأوربية القائلة بحرية الإنسان أمام مصيره ؛ ما يدعو إلى التفاؤل ... العكس هو الأصح ... فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض كانت فى رأيى من الأسباب التى أدت إلى كوارث العالم اليوم ... فالإنسان الإلـٰه الحر الذى لا شريك له ولا سلطان لقدر عليه ، مع ما يركب فيه من غرائز الحرب والكفاح ، عندما جحد وجود غيره على الأرض ، وأنكر كل قوة غير قوته فى الدنيا ، لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه ونشاط كفاحه غير نفسه ، فانقلب محاربا نفسه ، هادما ذاته ... فى حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التى تواجه الإنسان وتؤثر فى إرادته وحريته ، تدفع به فى نهاية الأمر إلى أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة ، وهذه القوى الخفية ... فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره هو عندى حافز إلى الكفاح ، لا إلى التخاذل ... « أهل الكهف » كافحوا ضد الزمن ... ولبث أحدهم متعلقا بالحياة ، يقارع الزمن بسيف بتَّار ، هو « القلب » إلى آخر لحظة ... و« شهر زاد » جاهدت محاولة أن تردّ إلى الصواب زوجها الذى أراد أن ينبذ أرضه وآدميته ، وأن تعيد إليه

إيمانه ببشريته ... و«سليمان» جاهد ضد إغراء القدرة التى كادت تخرس صوت الحكمة... وهكذا كان الإنسان عندى، يجاهد دائما ضد العوائق الخفية التى شعر بتأثيرها فى حريته وإرادته ومصيره...

لو اتجه تفكير الأدب الأوربى المعاصر إلى هذه الوجهة ، ودعا إلى حشد قوى الإنسان ضد القيود الخفية التى تكبل حريته الحقيقية ؛ لكان فى هذا النوع من التفكير بعض الحل لأزمة الإنسانية فى العصر الأخير ... فأزمة الإنسان اليوم هى حربه ضد نفسه ... فهو ليس له قريع آخر غير نفسه ... لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة ... لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ، التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب نضاله ، وتتطلب تفكيره ... » .

الأدب الأوربى فى هذا العصر لا يريد إذن أن يقف من الإنسان موقفا صريحا صادقا ... فإلباس الإنسان ، على هذه الصورة ، ثوبا مسرحيا من قدرة وحرية لا حدّ لهما ، ووضع هالة الألوهية هكذا فوق رأسه ... تبرق بأشعتها الصناعية ... كل هذا الخداع ، شأن كل خداع ، مهما يكن من سلامة دوافعه وأهمية أهدافه ؛ فإن له من العواقب ما يهدد بصيرة الإنسان ...

الآن وقد كشفت لك عن رأيى فى وضع الإنسان من الكون ، على أساس أنه يعقل وجود الأرقى ويشعر به ، ويدرك أنه حر الإرادة فى نطاق إرادة خارجية عليا ... فلننتقل إلى وضع هذا الإنسان فى المجتمع ، بحالته هذه وإدراكه هذا ...

ما هو المنتظر من هذا الإنسان أن يصنع ؟... إنه كما ذكرت ، ليس كالنحلة ركب فيها عملها من البداية إلى النهاية ... لا ... إنه أعطى آلة مفكرة قابلة للنمو ، وآلة شاعرة قابلة للنمو أيضا ... وهذا كل شىء ...

ماذا يصنع ؟... وفى أى طريق يسير ؟... لا بد له من هداية ... لا بد له من نموذج ... هذا النموذج هو إدراكه للأرقى ، هذا الإدراك للأرقى ؛ هو دليله الذى يقوده فى طريق الحياة الإنسانية ... هو حافزه للتطور ...

هذا الإدراك للكائن الأرقى ليس عندى مجرد عقيدة دينية ؛ بل هو ضرورة إنسانية ... شأنها فى ذلك شأن الضرورة الحيوانية التى

تحمل الحيوان على إدراك الأقوى ...

فإدراك الحيوان لوجود الأقوى هو الذى يحمله على اكتشاف منابع قوته الذاتية ، وتنميتها وإعدادها لساعة المواجهة واللقاء ... ولو فرضنا أن حيوانا عاش وحده فى جزيرة نائية ، اطمأن فيها إلى وجوده ، ولم يشعر بقوة فيها غير قوته التى لا يرى حاجة إلى استخدامها أو مقارنتها بأخرى ، لكان من الجائز أن تضمر هذه القوة فيه وتضمحل ... فالشعور بوجود الأقوى ينشط القوة ... كذلك الشعور بوجود الأرقى عند الإنسان ينشط الرقى ...

إن نظرية التطور عند « لامارك » و« داروين » و« سبنسر » لن تصح فيما يتعلق بالإنسان إلا إذا أدرك وجود الأرقى ... فنمو عقله وقلبه رهن بهذا الإدراك ... طبقا للقاعدة التى تقول بتطور العضو تبعا للوظيفة ، تلك هى الضرورة الإنسانية التى أرتبها على اعتقاد الإنسان بأنه ليس وحده فى الوجود ... هذه الضرورة التى تحمله على اكتشاف نفسه ، وارتياد منابع قواه الذهنية والروحية ، وتنميتها وإعدادها لمواجهة تلك الأسرار والقوى الخفية التى تبهر عقله وتخلب لبه ... وهو فى هذا الكشف والارتياد والتنمية يتغير

ويتطور ، ويسمو على ذاته طبقة بعد طبقة ... فردا ومجتمعا ...

والإنسان قد تطور فعلا بناء على هذا الإدراك للأرقى بعقله وقلبه ... ثم وقف تطور الإيمان القلبى ، كما ذكرت ، واستمر التفكير العقلى يتطور وحده فى قفزات باهرات ، جعل العصر الحديث ينسى النموذج الأصلى ؛ وهو الكائن الأرقى ؛ أو فكرة الله ... ولا يرى غير العقل المنتصر بمفرده ...

هذا الاختلال فى التعادل بين تطور الفكر وتطور الإيمان ، قد عرقل سير الإنسان فى طريق الرقى الكامل ، كما عرقله أيضا اختلال فى التعادل بين تطور الفرد وتطور المجتمع ...

قلت لك إن الإنسان ليس خاضعا للجبرية التى تخضع لها النملة والنحلة ... فهو قد خلق حرا يتكيف عمله ويتحدد اتجاهه تبعا لظروف اتصاله بالحياة ، ومهما يكن من أمر وجود القوى الأخرى التى تؤثر فى إرادته ؛ فإن هذا التأثير لا ينفى عنه صفة الإرادة الحرة فى كثير من أوضاعها ...

وما دام الإنسان حر الإرادة ، ولو بعض الحرية ؛ فهو إذن مسئول ... لأن المسئولية تنبع من الحرية ... فالنحلة أو النملة ليست مسئولة عن عملها ؛ لأنها خلقت به ... أما الإنسان فلم يخلق بعمله ... فهو إذن مسئول عنه ...

وإذا ذُكرتْ مسئولية الإنسان منذ القدم ذكر الخير والشر ... لأن الخير والشر هما الموجب والسالب فى كهرباء العلاقات البشرية ... والخير والشر فى رأيى لا شأن لهما بالإنسان الفرد ... ولا وجود لهما إلا بالمجتمع ... فلو فرضنا وجود شخص منعزل فى جزيرة ، ليس فيها غيره وغير أشجار فاكهة يطعم منها ، فإن

الخير والشر لا يوجدان فى هذه الجزيرة ... فإذا فرضنا أن شخصا آخر هبط عليه ، وعاشا معا ، فإن الخير والشر يولدان ليعيشا معهما ... فقد يحدث أن يقطف أحدهما ثمرة شهية يطمع فيها الآخر ، فيختلسها منه أو يغتصبها لنفسه ، وقد يحدث أن يمرض أحدهما فيقوم الآخر على خدمته ومعونته ... فالخير وهو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى نفع الغير ، والشر وهو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، لا يوجدان إلا بوجود الغير ... فلا بد إذن من وجود الغير ، أو بعبارة أخرى المجتمع ، حتى يوجد الخير والشر — فالخير والشر لم يولدا مع الإنسان ، ولكنهما ولدا مع المجتمع ... أو على الأصح بعد ميلاد المجتمع ... وأقصد بالمجتمع هنا مجرد اجتماع شخصين فأكثر وهنا يصح أن نسأل :

— أيهما ولد قبل الآخر ؟... الخير أم الشر ؟...

فى رأيى أن الشر والخير ، كالليل والنهار ، يتعادلان ولا ندرى أيهما أسبق ... وقد يكون الشر هو الأصل فى الإنسان ، لأنه متصل بالوعى للإنسان : وهو الشعور بالذات ، وحب هذه الذات ... فحب الذات الغريزى فى كل الموجودات الحية ، ومنها

الإنسان ، يدفعه إلى إرضاء هذه الذات ولو أدّى ذلك إلى إيذاء الغير ... وكلما كان المجتمع بدائيا همجيا انطلقت هذه الأثرة الغريزية على فطرتها غير مبالية بضرر الغير ... ولكن المجتمع فى تطوره نحو النظام رأى أن ضرر الغير لا بد أن يوازَن ويعادل بفعل آخر ، هو : نفع الغير ، وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير وضعا هاما من أوضاع السلوك العام ، فمجَّد الخير وحقَّر الشر ... لأن المجتمع يعلم أن الخير فى حاجة إلى دعوة وتشجيع ، لأن حب الغير أشق وأصعب عند الإنسان من حب النفس . فالخير وليد الروح والتهذيب ، ولكن الشر وليد الغريزة والطبع.وكان من أثر هذه الدعاية بصورها المغرقة أن وضعت العلاقة بين الخير والشر وضعا مصطنعا أدى إلى انشطار المجتمع إلى أخيار وأشرار ، وأبرياء ومجرمين ... وهذا التقسيم ليس فى مصلحة الإنسان ولا المجتمع ... ذلك أنه يحفر هوة وهمية بين الإنسان والإنسان ، ويصم طائفة من المجتمع بوصمة سوء عرفية لا تزول عنهم أبدا ... وهذا مع ما فيه من إلحاق الشلل والعقم بجزء من جسم المجتمع ، فإنه مخالف لحقائق الأشياء ...

لقد لاحظ أحد النقاد الأجانب أن مسرحي يقوم على أشخاص تتحدد مراكزهم ، لا بالنسبة إلى الخير والشر ، بل بالنسبة إلى الحقيقة والواقع ... هذا صحيح ، فأنا لم أبرز قط أشخاصا ينتمون إلى الخير مطلقا ، أو إلى الشر مطلقا ... فأنا أرفض هذه الفكرة ، ورفضتها دائما فى كل ما كتبت ؛ بل إنى رفضت فكرة الثواب السماوى للخير المطلق ... راجع قصتى « طريد الفردوس » ... لأن الأنبياء والرسل أنفسهم تعرضوا لعتاب الله ، ولا يمكن أن يعاتب الله على الخير ...

فالإنسان عندى قيمة ثابتة ، تلحق بها أحوال متغيرة من الخير والشر ، والصحة والمرض ... وإن من يأتى عملا يضر الغير ، يستطيع أن يأتى عملا ينفع الغير ... وهو لذلك ليس خيّرا ولا شريرا ، ولا صحيحا ولا مريضا فى أحواله العادية ؛ إنما هو موضع تتعادل فيه وتتوازن هذه الحالات المختلفة المتغيرة ... فهو يكون فى حالة مرض ، ولكنه يعمل للشفاء : أى للاقتراب من حالة الصحة ... ذلك أن الإنسان باعتباره قطعة من عالمه المتحرك ، ما يكاد يقع فى حالة حتى يبدأ فى التحرك نحو الحالة

المقابلة أو المعادلة ، وهو لا يبقى فى حالة واحدة طويلا إلا بوسائل صناعية ... فمن بقى فى حالة الشر أكثر مما ينبغى واستمر يضر الغير ، فإن ذلك فى أكثر الأحيان راجع إلى أن المجتمع سدَّ فى وجهه طريق الانتقال إلى الحالة المعادلة التى تتيح له فعل الخير ... لذلك أرى أن فكرة الخير والشر يجب أن تتغير فى نظر المجتمع ... وأن المجتمع يجب أن يقف من مرتكب الشر — لا موقف المنتقم — ، بل موقف المطالب بحالة التعادل ، أى بفعل الخير ... وعلى هذا الأساس يجب أن تتغير فكرة العقاب ... فمعاقبة مرتكب الشر بحبسه : أى بحرمانه من حريته ؛ فكرة خاطئة ... فحرية الإنسان يجب أن تبقى له ... وثمن الجريمة يجب أن يُدفع — لا من حرية الإنسان — ؛ بل من عمل إيجابى يوازن ويعادل العمل الذى ارتكبه ... إن من يرتكب الشر : أى من يقوم بالعمل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، يجب أن يدفع الثمن بعمل إرادى يؤدى إلى منفعة الغير ... أما أن يؤدى المذنب الثمن بمجرد حرمانه من التدخين أو الطعام أو الاتصال بأهله وذويه ، فهذا إجراء سلبى لا يعود على الغير بفائدة ، ويعود على المذنب بشر العواقب ، فهو

يفقده آدميته ، ويقلبه وحشا بشريا يتدرب فى سجنه وقفصه على التنمر للمجتمع الذى وصمه بوصمة الإجرام ... وهذا ما يفسر لنا كيف نجحت السجون وتنجح فى مختلف الأمم — مهما يبلغ رقيها — فى تخريج طراز خطـــر ماهـــر مدرب من المجرمين المحترفين ... ذلك أن فكرة العزل عن المجتمع ، تحمل فى نفسها خطرها على المجتمع ... فالمجتمع الذى يدفع عن حظيرته شخصا — ولو لمدة محدودة — يقلبه فى الحال عدوا ناقما ... وإن فى طرد مرتكبى الشر بعيدا عن المجتمع ، وتجميعهم فى مكان واحد ، لمما يربطهم جميعا برباط واحد ، ويجعلهم يكوّنون فيما بينهم مجتمعا آخر ، تسوده تعاليم أخرى معادية لتعاليم المجتمع الذى طردهم ... وهكذا تتم عملية الانشطار بين أهل المجتمع الواحد ، وينقسم الناس إلى أخيار وأشرار ؛ بحكم القانون والعرف ، لا بحكم الواقع والحقيقة ... ذلك أن من بين أفراد المجتمع مذنبين ومرتكبى شر لم يقبض عليهم ولم يقعوا تحت طائلة القانون استمروا فى حياتهم العادية بين أهلهم وذويهم ، يتحركون فى المجتمع بكامل حريتهم وحقوقهم ، يصنعون الشر مرة والخير مرة ، إلى أن تتغلب حالة

على حالة ، فيظهر خيرهم ونفعهم للناس ؛ فيرضى عنهم المجتمع ، أو يظهر شرهم وضرهم للناس ؛ فيطالبَوا بتقديم الحساب ... وهذا الحساب هو وحده الذى يجعل منهم المجرمين المحترفين ما دام يتخذ شكل الحبس الذى أشرنا إليه : أى القفص الذى تتدرب فيه الوحوش على صقل مخالب الإجرام ...

والرأى عندى هو إعادة النظر فى طريقة الحساب والعقاب ... فيما عدا عقوبة الإعدام للقتل العمد ، فهى لا بد أن تبقى ... لا على أنها عقوبة ؛ بل لأنها وضع طبيعى ... فطبقا لمذهب التعادل : لا شىء يعادل حياة الإنسان غير حياة الإنسان ... أما بقية الجرائم التى يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية : أى بالحبس والسجن ؛ فهى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس جديد ... على أساس المعادلة — لا بين الحرية والشر — ؛ بل المعادلة بين الخير والشر ... أى أن من يرتكب فعلا يضر الغير يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير ... وعلى هذا الوضع يجب أن تلغى السجون ، ويقام بدلا منها مصانع وأدوات إنتاج ... فمن فعل شرا بالمجموع عليه أن ينتج خيرا يفيد المجموع ، دون حاجة إلى أن

يطرد من مجتمعه أو يقصى عن أهله وذويه ، أو يحرم من حريته فى ممارسة حياته العادية ... كل ما يطلب منه هو أن يؤدى ثمن الشر الذى ارتكبه من إنتاجه ... يجب أن ينتج لحساب المجتمع ما يعادل فى الزمن والكم جسامة الشر الذى صدر منه ... هذا الحساب الإيجابى المنتج أفيد وأنفع للمجتمع من السجن السلبى العقيم ، وهو فضلا عن ذلك مبق لكرامة المذنب ... لأنه يبقيه بين مجتمعه وأهله : أى فى البيئة الصالحة لتوبته وتحركه فى اتجاه الخير ...

ووجود الخير والشر يؤدى إلى وجود الضمير ... والضمير خاص بالإنسان ... لأن الخير والشر لا يعرفهما الحيوان ... فالحيوان قد ينفع ويضر ، ولكن بالفعل الغريزى لا بالفعل الإرادى ...

ومتى انتفت الإرادة ، انتفت المسئولية ، ومتى انتفت المسئولية عن الخير والشر ، انتفى معناهما ... والضمير كالخير والشر ، لا بد لوجوده من وجود الغير : أى المجتمع ... فالإنسان الفرد المنعزل فى جزيرة نائية يعيش بدون ضمير ؛ لأنه يعيش بدون خير وشر وغير ... ولكن ما هو الضمير ؟... أهو مجرد الشعور بأن الشر : شر ، والخير : خير ؟... بماذا نصف شعور الارتياح عند من يقتل أخذا بالثأر ، وهو يعلم أن ما فعل شر ؟... أو شعور الرضا عند من يسرق ثرياً ليمسك رمقه ؟... لا بد من وجود عنصر ضرورى فى الشعور حتى يوجد الضمير ... هذا العنصر هو الإحساس الذاتى بالذنب ، هو إحساس مرتكب الشر بأنه

أحدث بالغير ضررا جديرا بإصلاح ... الضمير هو إذن شعور الذات بِشَرٍّ لحق الغير لم يقدم عنه حساب ... ذلك أن المذنب الذى يعاقب على ذنبه أو يكفِّر عنه التكفير الكافى ؛ لا يسمع فى أعماق نفسه صوتا للضمير ... فالضمير لا يتكلم إلا ليذكر بالمديونية قِبل الغير ، أو بعبارة أخرى يذكر النفس أن الشر الذى ارتكب يجب أن يعادَل بخير ... هذا الشعور بالتعادل يسمى فى عرف الأخلاق بـ « العدل » ... فالعدل هو المظهر الأخلاقى للتعادل ... والضمير إذن هو الشعور بالعدل ، أو على الأصح : شعور الذات بعدل لم يتحقق نحو الغير ...

والضمير كما يوجد عند الفرد يوجد عند المجتمع ... فالمجتمع يتولد فيه أيضا شعور بأن عدلًا لم يتحقق نحو الغير ، أى نحو طائفة منه لحقها شر بفعل طائفة أخرى ... وهنا تقوم الثورات الاجتماعية لتصحح الوضع وتعيد حالة التعادل ، التى تسمى العدالة ، أو العدل الاجتماعى ...

فى محيط « الأخلاق » الضمير — الفردى أو الجماعى — هو الحارس المنوط به الصياح لطلب العدل : أى التعادل ...

أما فى محيط السياسة والاقتصاد ؛ فإن الحارس هو القوانين الآلية التى تعمل من تلقاء نفسها ، كما تعمل قوانين الغريزة فى محيط الحيوان والنبات .

ففى السياسة الدولية لا بد دائما من توازن : أى تعادل بين القوى ... وقلما حدث فى تاريخ الأمم أن انفردت طويلا دولة واحدة بالقوة فى العالم ... حتى يوم كادت الدولة الرومانية أن تسيطر بمفردها على الدنيا : انشطرت هى نفسها إلى قوتين ، إحداهما فى روما بزعامة « أكتافيوس » والأخرى فى الإسكندرية بزعامة « أنطونيوس » ... ثم حدث لها نفس الأمر فى العهد المسيحى ، حيث قامت الدولة الرومانية الغربية فى « روما » ، والدولة الرومانية الشرقية فى « القسطنطينية » . وهكذا ... وهكذا ...

وفى السياسة الداخلية لا بد دائما أيضا من توازن : أى تعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم ... حتى فى عهد السلطان المطلق ، فإن قوة المحكوم كانت تجد لها منفذا وسبيلا من خلال رجال الدين أو رجال الفكر ... فلما استطاع الشعب فى العصور الحديثة أن

يحكم نفسه بنفسه ؛ انشطرت قوته نفسها إلى قوى مختلفة فى صورة أحزاب تتوازن وتتعادل كى تحتفظ بوجودها الضرورى ، للتعبير عن إرادة من تمثلهم من طوائف الشعب ... فإذا تغلبت طائفة فى النهاية ، وابتلعت كل ما عداها من الطوائف والطبقات ، واتحدت فى قوة واحدة تشمل الدولة كلها ؛ فإن هذه القوة أيضا لا تلبث أن توَلد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور ... وقد تختنق وتكبت وتهزم وتخفق ؛ ولكنها لا بد يوماً أن توجد ... لأن قانون التعادل الذى نرى مظهره فى الشهيق والزفير ؛ هو الذى يعمل هنا أيضا ، ونرى مظهره فى وجود حركة توازن حركة ... لأن هذا هو شرط الحياة ...

أما فى الاقتصاد : فقانون التعادل صارم فى عمله ... فلابد أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهيق والزفير ... فإذا زاد العرض زيادة فاحشة على الطلب ، انعدمت قيمة السلعة ، وإذا زاد الطلب زيادة فاحشة على العرض ، ارتفع السعر واختنق السوق ، وكان لا بد من عودة التعادل بوسيلتين : إما بالمبادرة إلى زيادة العرض ؛ فيعتدل السعر وتعود الحركة

الطبيعية للسوق ، وإما أن يتعذر إيجاد العرض ، فيظهر قانون آخر ، هو قانون التعويض ، خلاصته أن سلعة أخرى مشابهة إلى حد ما فى الوظيفة للسلعة النادرة ؛ تحتل مكانها عوضا عنها فى سوق العرض .

كذلك الحال فى الميزان التجارى ، وفى التعادل بين الصادرات والواردات ، وفى معادلة الميزانيات بين الإيرادات والمصروفات ... وهكذا ... وهكذا ... ما الاقتصاد إلا تعادل بين عوامل مختلفة تتحرك طول الوقت فى الكيان المالى للأفراد والأمم ، وإذا اختل هذا التوازن فترة ، فلا بد أن يعادل نفسه بنفسه بقوانينه الذاتية .

وللتعادل أداته الفعالة التى يستخدمها دائما فى كل محيط : سواء فى العلم ، أو فى الأخلاق ، أو فى الفن ، أو فى الفكر ، أو فى السياسة ، أو فى الاقتصاد إلخ ... هذه الأداة هى ما يسمى بـ « رد الفعل » ... كل فعل فى كل محيط له رد فعل ، وما رد الفعل سوى آلة التعادل للفعل إذا أسرف وجار واختل توازنه وجاوز

حدوده ... رد الفعل ؛ أو بعبارة أخرى : رد التعادل إلى الفعل الذى انحرف إلى مداه ونهايته ... ذلك هو معناه الحقيقى ...

فالتعادل ؛ إذن يعمل بجهاز ذى محركين ... رد الفعل ، والتعويض ، ولعل مظاهر التعويض من أوضح ما يصادفنا فى الكائنات جميعا — فكل ضعف تعوضه قوة ... وكل نقص تقابله زيادة ... فالنحلة رقيقة الجناح ، ولكنها حادة الإبرة ، والثقيل فى الوزن والجسم ، غالبا ما يكون خفيف الظل والروح ... والفقيرة فى جمال الوجه أو الجسد أو الشكل كثيرا ما تكون غنية فى جمال النفس أو الخصال أو العقل ... وهكذا ... وهكذا ... ذلك أن التعادل لا بد أن يتم على أى حال ... فكل فعل لا بد له من رد فعل ... وكل ضعف لا بد له من قوة مقابلة ... وكل نقص لا بد له من زيادة معادلة ... فالشر والضعف والنقص والقبح حالات فى الكائنات لا يمكن أن تقوم بنفسها دون وجود أضداد تعادلها ... وكل المشكلة هى أن الكائن العاقل ، أعنى الإنسان ، هو وحده الذى يجهل أحيانا تلك الحقيقة ... فإذا

لحقته حالة من تلك الحالات ، وقع فى اليأس ، فلم يسع إلى اكتشاف القوى المعادلة الموجودة لديه وهو لا يدرى ... فى حين أن الكائن الغريزى ، أى الحيوان أو النبات ، لا يقعد يـائسا ولا جامدا ، بل يدرك بمعارفه الغريزية أين يجد قواه المعادلة .

أشرت منذ لحظة — فى صدد الحديث عن التعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم — إلى رجال الفكر ، باعتبارهم المنفذ الذى تتسرب من خلاله قوة المحكوم فى عهد السلطان المطلق ... وهذا قد يدعوك إلى التساؤل :

— ما هو الفكر ، وما هو السلطان ؟...

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتصور مرة أخرى ذلك الرجل المنعزل فى الجزيرة النائية ... هذا الرجل كيف يقضى حياته ؟ — إنه لا شك يعمل فى نهاره ليوفر لنفسه المأكل والملبس والمأوى ، فهو يقطف الثمر من الشجر ، ويصنع من الأغصان كوخا ، وينسج من بعض الألياف ثيابا ... أى أنه يباشر العمل الضرورى لحياته المادية ... فإذا جاء وقت الراحة واضطجع فى الظل الوارف ، وأرسل بصره إلى السماء الصافية بدأ فى حاله قائلا لنفسه :

— وبعد ؟... من أنا ؟... وما معنى حياتى ؟... أهى تسرنى

نعم إن حولى أشياء جميلة ؟... ما هو الجمال ؟... هو إدراكى لخلق أعجب به ... وما دمت قد وعيت الإعجاب فإنى أشعر بوعى آخر : هو التمنى ... إنى أتمنى أن أكون على صورة تعجبنى ... تملؤنى إعجابا ... صورة أفضل ... ما دمت قد وعيت الأفضل لى ... فحاضرى إذن لا يعجبنى تماما ... إذن أنا أنتقد وضعى ... على أى صورة أفضل أود إذن أن أكون ؟... هذا الكوخ أولًا يجب أن يصير متسعاً مرتفعا ، لأشرف منه على البحر ... وهذا البحر يجب أن أسبح فيه ... فلأصنع إذن قاربا ... فإذا صنعت القارب فإنى أستطيع أن أحيط بالجزيرة وأعرف كل شواطئها ، وقد أتمكن من استكشاف جزيرة أخرى قريبة ... إلخ ...

هذا هو التفكير ... وقد يؤدى هذا التفكير إلى العمل ... فينهض هذا الرجل فى اليوم التالى ليحقق بالفعل كل أو بعض ما فكر فيه ... وقد يصادف من العوائق والصعوبات ما يصرفه عن تحقيق أفكاره ، فيكتفى بعمله اليومى المعتاد ، ويجلس يسخر من تفكيره ، ويهزأ بتبرمه ونقده لوضعه ... وهكذا :

إما أن ينجح الفكر فى توجيه العمل ، وإما أن ينجح العمل فى خنق الفكر .

فإذا فرضنا أن رجلا آخر قد هبط الجزيرة ... وأصبح فى الجزيرة رجلان : أى مجتمع صغير ... وكان أحدهما أقوى عملا ، والآخر أقوى فكرا ... فما الذى يحدث ؟... ما من شك فى أن أحدهما سيؤثر فى الآخر ... وهذا التأثير سيختلف فى المدى والصفة تبعا لسلطان كل منهما ... فإما أن يظهر سلطان العمل فيخضع الفكر لإرادته ... وإما أن يظهر سلطان الفكر فيوجه العمل حسب مشيئته ... وإما أن يحتفظ كل منهما بسلطان معادل تجاه الآخر ، فيكون التوازن الذى يحد من انفراد أحدهما بالسيطرة انفرادا طاغيا .

فإذا انتقلنا من المجتمع الصغير فى هذه الجزيرة إلى المجتمع الكبير فى الأمم والشعوب ، فإننا نجد الصراع بين هاتين القوتين : قوة العمل وقوة الفكر ، يحتل الجزء الأكبر من تاريخ البشرية ... فالعمل من قديم ممثل فى السلطة المادية التى تتولى أمور الناس بالفعل ... والفكر ممثل فى السلطة الروحية التى تبصر وتنقد

وتفتح للناس الآفاق التى يمكن أن يمتد إليها التطور الإنسانى ...

ولعل أول مظهر للسلطان العملى هم الملوك ، وللسلطان الروحى هم رجال الدين ... والصراع بين السلطانين معروف من قديم ... أما رجال الفكر ، من فلاسفة وشعراء وعلماء وأدباء وفنانين ، فإنهم لضعفهم وفقرهم وتفكك الرابطة بينهم ، قد اضطروا فى العصور القديمة إلى خدمة الأقوى والأغنى ، وهم الملوك ... وبقى رجال الدين يصارعون إلى أن ضعف سلطانهم بضعف سلطان الدين نفسه ، وخاصة فى العصور الحديثة ، على أثر التقدم العلمى ، وركود التجدد الروحى ... على أن التقدم العلمى أو العقلى قد ردّ إلى رجال الفكر سلطانهم المفقود ... فبدأوا يظهرون بمظهر القوة المستقلة فى إطار الديمقراطية التى أضعفت الملوك ، ونوّرت الشعوب ومكنتها من اقتناء الآثار الفكرية ، وضمان العيش لرجال الفكر ...

فالعصر الحديث إذن لم يعد عصر الصراع بين الملوك ورجال الدين ...

فما الذى حدث اليوم لقوة العمل وقوة الفكر ؟...

إن الإجابة عن هذا السؤال تلخص كل روح العصر الحاضر ... فقوة العمل اليوم يمثلها حكام من صميم الشعب ، يصلون إلى السلطة عن طريق الأحزاب والانتخابات ... وسواء أكان الحكم فى أيدى أحزاب متعددة تتناوبه ، أم فى يد حزب واحد يسيطر عليه وحده ؛ فإن الشعوب الآن هى التى تحكم نفسها بنفسها ... وعندما يقال إن شعباً يحكم نفسه فمعنى ذلك بالطبع أنه اختار حكامه من أبنائه ؛ وهؤلاء الأبناء هم الذين تتركز فيهم قوة العمل ...

على أن هذا الوضع الحديث لم يغير الشعور الخفى الذى يكنه العمل نحو الفكر ... فقوة العمل التى تمثل « التنفيذ » تخشى وتكره دائما قوة الفكر التى تمثل « النقد والتوجيه » ...

إن « العمل » فى كل زمان يحاول أن يلزم « الفكر » بالطاعة ، ففى عهد الملوكية يوم كان رجال الدين هم القائمين بمهمة النقد والتوجيه لسلطان الملوك ، كان الملوك يجاهدون دائما لخفض هذه الأصوات المرتفعة إلى جانب إرادتهم ، فتارة يرغِّبون ويستميلون ، وتارة يهددون ويخيفون ، وتارة يستولون عنوة على

القوة الروحية ويعلنون أنهم هم الرؤساء الحقيقيون للدين ...

فى العصر الحديث يتعرض « الفكر » لعين الخطر ، ولكن فى صورة جديد ... فالحكم الديمقراطى أو الشعبى لا يستطيع فى كل الأحوال أن يخفض صوت « الفكر » الحر قهراً وغصبا ، ولكنه يستطيع أن يلغى وجوده إلغاء ؛ بأن يستدرجه استدراجا إلى حظيرة السياسة العملية ... ومتى دخل رجل الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده وتوجيهه وتفسيره ، وأصبح منضما إلى نظام معين ، يسير فى اتجاهه ، ويعمل بتعليماته ، ويخضع لإرشاداته ؛ وبذلك يتجنب الحزب السياسى فكرا طليقا مناهضا لإرادته ، ويكتسب جنديا مطيعا يأتمر بأوامره ...

وهذا الاستدراج للفكر كى يقع فى حظيرة العمل ، يتم فى العصر الحديث بواسطة شباك وفخاخ صنعت بمنتهى البراعة : شباك وفخاخ فى صورة نظريات أدبية وفلسفية ، تؤدى كلها فى النهاية إلى أن يلتزم الفكر بالعمل التزاما يضر بمقومات حياته ، أو يخضعه له إخضاعا يقضى على كيانه الذاتى ...

وبعض الواضعين لهذه النظريات من رجال الفكر أنفسهم

لم يقصدوا الإضرار بالفكر ، ولكنهم انجرفوا تحت تأثيرات مختلفة ... منها حنين بعضهم إلى العمل حنينا أفقدهم الثقة فى قوة الفكر الذاتية ... خصوصا فى عصر بلغت فيه المادية أوجها ... وعصفت فيه الحروب بالقيم ، وزلزلت النظم ، وتغلغلت آثارها المدمرة فى نفوس الأفراد والجماعات ، وأصبح لكل شخص على الأرض مشكلة يريد لها حلا ، وأسئلة ينتظر عنها جوابا ... وأحس رجل الفكر أن مهمته قد ازدادت عبئا ... ومسئوليته قد ثقلت وزنا ... وخشى أن يكون القلم فى يده غير كاف ولا شاف ...

هذا الإيمان المزعزع بقوة الفكر ، قد دفع بعضهم إلى الانخراط فى سلك حزب من الأحزاب ، فانقلب بذلك إلى رجل عمل ، وانقلب فكره داعية لحزبه ... كما دفع بعضهم إلى الحيرة بين الأحزاب المختلفة ، والنضال فى الميادين المتعددة ، يتقاذفه القلق وخيبة الأمل ، إلى أن ينتهى به الأمر ، إما إلى تأليف حزب خاص يحبس فيه فكره ، وإما إلى تأجير الفكر أو التبرع به للخدمة فى كافة ميادين السياسة والحكم ...

فى كل هذه الصور ، ما ارتفع منها فى المعنى وما انخفض ، ترى رجل الفكر قد ضعف وشك واستسلم وترك مكانه هلعا ، وجرى ينضم تحت راية السلطة العملية ... وبذلك هرب من رسالته الحقيقية ... تلك الرسالة التى تعتبر « الفكر » قوة مستقلة معادلة وموازنة ومراقبة لقوة « العمل » .

وهذا التعادل بين القوتين يبطل إذا ابتلع أحدهما الآخر ، والخوف دائما على الفكر منذ القدم ... لأن العمل : أى الحكم هو الأقوى ... وهو الذى اعتاد أن يبتلع الفكر ...

فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر وأن يصون وجوده الذاتى حراً مستقلا ، وأن يصمد به فى وجه كل عدوان ؛ لأنه هو الضمان الوحيد على هذه الأرض الآن تجاه انحراف قوة العمل الانحراف الطاغى المدمر ...

لكن هل معنى حرية الفكر واستقلاله أن ينفصل وينعزل ، كما يتهم أحيانا ؟... لا ... استقلال الفكر شىء ، والانعزال شىء آخر ... المنعزل لا يتأثر ولا يؤثر ، فهو شىء غير كائن بالنسبة إلى الغير : أى المجتمع ... والفكر الذى ينعزل عن العمل شأنه شأن

الفكر الذى يبتلعه العمل ... كلاهما لا وجود له ... إنما المقصود باستقلال الفكر هو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة فى مواجهة العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه .

قد تسألنى : ولماذا نفصل الفكر عن العمل ؟... ألا يمكن أن يندمجا ويتحدا ؟...

جوابى أن هذا مستحيل ...

لأنهما عندما يندمجان ويتحدان يصبحان شيئا واحدا هو : العمل ...

ولنضرب مثلا بسيطا : أنت تفكر فى السفر إلى الريف للنزهة ... فإذا سافرت بالفعل فقد انقلب تفكيرك إلى عمل ...

وإذا لم تسافر فإن الذى حدث هو التفكير ... فإذا اندمج التفكير واتحد مع العمل ، فمعنى ذلك أنك سافرت : أى أصبح الفكر عملا ، أى أنه لم يعد هناك تفكير وعمل ، بل عمل فقط ... لأن التفكير انتهى ... ابتلع فى جوف العمل ...

قد تقول : إن كل عمل هو إذن نتيجة تفكير سابق ؟...

هذا صحيح ...

العمل هو تفكير تحجر ونفذ ... أو إرادة تجمدت فى وضع نهائى ... والفكر هو إرادة حرة سائلة قابلة للتحرك والتكيف والتطور ...

فأنت عندما تفكر فى السفر إلى الريف للنزهة تستطيع أن تغير هذه الإرادة وتحركها وتطورها كيفما شئت ...

ولكن إذا تحولت هذه الإرادة إلى عمل وتم السفر ، فإن الفكرة التى كانت طليقة قد تحجرت بمجرد تنفيذها ...

فالعمل إرادة تجمدت وتقيدت والتزمت بوضع خاص .

فالالتزام إذن من صفات العمل .

والحرية من صفات الفكر .

والفكر الذى يلتزم ينقلب إلى عمل .

وهذا بالضبط هو الذى يحدث فى الأحزاب السياسية والاجتماعية ... فالبرنامج الحزبى : أى المذهب السياسى أو الاجتماعى هو فكر تقيد — أى التزم — به الحزب .

فانضمام رجل الفكر إلى حزب من الأحزاب معناه تقيده

والتزامه بتفكير الحزب ... وهذا الالتزام يناقض الحرية التى هى جوهر رسالته الفكرية ... لأن التزامه بمذهب حزبه يحزمه مباشرة سلطة الفكر فى المراقبة والمراجعة ... هذه السلطة الحرة التى هى أساس مسئوليته الحقيقية ... وهو بذلك إما أن يخضع ويرضخ لحزبه ، وينزل راضيا مختارا عن وظيفة رجل الفكر ، ويصبح رجل عمل ... وإما أن يصر على الصمود والاحتفاظ بسلطة وظيفته الفكرية ، ويناقش أفكار حزبه ويوجهها ويطورها بمطلق الحرية التى تخولها له مسئولية رجل الفكر الحر ، وعندئذ سيجد نفسه مفصولا عن الحزب ومطرودا أو مضطهدا .

على أن ضعف أغلب رجال الفكر فى العصر الحاضر ، وانهيار إيمانهم برسالتهم وقوة تأثيرها ، قد ربط الفكر فى عجلة العمل ، وجعل الأقلام فى خدمة الحكومات ... واختل بذلك التوازن والتعادل بين القوتين .

ولعل اختلال التعادل بين قوة الفكر وقوة العمل هو من أسباب الكوارث التى تهدد هذا العصر الحديث ؛ فإن طغيان قوى العمل

فى هذا العالم وانحرافها نحو الاستعباد والاستعمار والسيطرة وإثارة الحروب المدمرة ، دون أن تجد أمامها قوى روحية أو فكرية معادلة تتكتل لردها إلى الصواب ، هو ولا ريب من أهم مصادر القلق الذى يخيم على الدنيا ، ويملأ النفوس بشعور من ينحرف سريعا إلى هاوية ...

عرفنا إذن قطبى النشاط الإنسانى ، وهما : الفكر ، والعمل ... وقلنا لماذا يجب أن يحتفظ كل منهما بقوته الذاتية فى نظر المذهب التعادلى حتى يتم بينهما التوازن ، لأن هذا التوازن هو الذى يكبح جماح كل منهما ، ويحول دون طغيانه المفسد لكيان البشرية .

ولنقصر الحديث الآن على الفكر ، وعلى الأخص الناحية التى تهمنا منه هنا : وهى « الأدب والفن » .

هنا أيضا نجد « التعادلية » تقيم الأدب والفن على أساس قوتين يجب أن تتعادلا ... هما : قوة التعبير وقوة التفسير ... فالأثر الأدبى أو الفنى لا يكتمل خلقه ، ولا ينهض بمهمته إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة .

ما هو المقصود بالتعبير هنا ؟... أهو الشكل ؟... لا ... إنه ليس الشكل فقط ... إنه شيء أكثر من ذلك ... ولأضرب لك مثلا بسيطا : فلنفرض أنك سمعت نادرة من النوادر يلقيها

شخصان ... أحدهما متكلم عادى ... والآخر محدث لبق موهوب ... هذه النادرة الواحدة تتخذ عندئذ مظهرين مختلفين ... فهى فى الحالة الأولى تبدو مجرد حادثة ... أما فى الحالة الثانية فتبدو هذه الحادثة نفسها وكأنها لوِّنت وأضيئت وتحركت بحياة نابضة ، لا تدرى من أين أتتها ولا كيف نفخت فيها ... تلك هى قوة التعبير ... إنها ليست فقط طريقة الإبراز والإظهار ... لأن هذه الطريقة لا تقوم وحدها بغير الحادثة التى فى جوفها ... فالتعبير إذن ليس مجرد الشكل ؛ بل هو الشكل والموضوع معا ... هو الشكل والشىء الذى يتشكل فيه ... هو النادرة والأسلوب الذى رويت به ... فالأسلوب وحده بغير النادرة لا يعنى شيئا فى ذاته ولا يعبر عن شىء ... فالتعبير إذن يستوجب وجود الأسلوب وموضوعه معا ... لأن التعبير عن شىء يحتم وجود الشىء ...

وقوة التعبير هى أيضا توازن وتعادل بين قوة الأسلوب وقوة الموضوع ...

فإذا طغى أحدهما على الآخر ؛ فإنك تشعر فى الحال أن الوضع غير طبيعى ... فالأسلوب البارع والموضوع التافه يثيران فى

النفس إحساسا بالتكلف ... وكلمة « التكلف » هنا ليست مجازا ولا مجرد وصف أدبى ... بل هى ذات مدلول يكاد يكون ماديا ... فإن الأديب أو الفنان الذى يحتفل احتفالا بالغا بإبراز موضوع هزيل ؛ إنما يتكلف فعلا أمرا لا لزوم له ... كمن يرتدى ثياب السهرة ليجلس بمفرده فى حجرته يتعشى بكسرة خبز !... فعدم مراعاة مقتضى الحال تكلف ... والتكلف فى الأسلوب قبح كما هو فى الحياة ... لأن شرط الجمال الفنى أن يثير فى النفس إحساسا بأنه منبثق من نبع طبيعى ... ومهارة الفنان هى فى إحداث هذا الشعور الطبيعى دائما ... فإذا أحس الناس منه أن جماله خارج من نبع صناعى ؛ فقد أخفق ...

كذلك الحال إذا طغى الموضوع على الأسلوب ... فالموضوع العظيم فى الشكل السقيم يثير فى النفس إحساسا بالتحسر ... كمن يصوغ اللؤلؤة فى خاتم من الصفيح ... اختلال التعادل إذن فى الحالتين بين قوة الأسلوب وقوة الموضوع يحدث الشعور كذلك بأن الوضع غير طبيعى .

قد تسأل : ما هو الأسلوب فى الأدب والفن ؟... وما هو

الموضوع ؟... الأسلوب هو طريقتك الخاصة فى الظفر بإعجاب الغير وشعوره وفكره ؛ ليرى ما ترى ، ويحس ما تحس ، ويفهم ما تفهم .

وهذه الطريقة فى الأدب والفن مردها إلى الاستعداد الفطرى والدرس الاكتسابى والاجتهاد الشخصى ... فلا بد من بعض الهبة ... ولا بد بعد ذلك من الدرس الطويل لمعارف الأعلام وأساليبهم من الأقدمين والمحدثين ، ولا بد أخيرا من تصرفك الخاص لتلائم وتوازن بين المحاكاة والابتكار ... فإن المحاكاة إذا غلبت عليك فأنت لم تضف شيئا إلى ما سبقوك ، وإذا أسرفت فى الابتكار فقد قطعت الصلة بينك وبين الآخرين ، وانفصلت حلقتك من سلسلة التطورات الطبيعية فى حياة الأدب أو تاريخ الفن ... هكذا فعل « شكسبير » و« بتهوفن » فيما قاما به من محاكاة وابتكار ...

أما الموضوع فى الأدب والفن ؛ فهو كل ما تستطيع أن تثير به اهتمام الناس ، على نحو غير مسف ولا فارغ ولا مبتذل .

وليس للموضبوع العظيم أو التافه شروط معينة أو معالم

محددة ... فتقديره متروك لعبقرية الأديب أو الفنان ... فقد يتناول بمواهبه السحرية موضوعا نحسبه تافها ، فإذا هو يخلق منه بقلمه أو ريشته أو مطرقته أو ألحانه شيئا يثير اهتمام الناس فى جيله وفى جميع الأجيال ... فالموضوع لا تتحدد صفته العظيمة أو التافهة إلا بعد أن يصب فعلا فى الأثر الأدبى أو الفنى ... فالوردة أو الآنية أو التفاحة قد تكون موضوعا تافها أو عظيما ؛ تبعا للفنان الذى يتناولها ... أى تبعا لدرجة خبرته وإحساسه وقدرته على النفوذ إلى حقائق الأشياء ، أو تبعا للطريقة التى يختارها الفنان ... فموضوع « هاملت » كان من الممكن أن يبقى موضوعا تافها عاديا لو عالجه شاعر عادى ... وموضوع « هاملت » نفسه كان يمكن أن يصبح فى خفة موضوع « زوجات وندرسور المرحات » ، لو أن شيكسبير اختار أن يجعل منه مسرحية ضاحكة عابثة بدلا من تلك المسرحية الفكرية الجليلة ... وشيكسبير كان يدرك بسليقته الفنية معنى التعادل بين الأسلوب والموضوع فكان إذا أراد الجد اتخذ أسلوبه ما يناسب ذلك من العمق ... وإذا أراد الهزل خفف أسلوبه فلم يثقله بكنوز

فكره ... كان إذا أراد للفكر أن يتألق كالجوهرة كى يضىء حقائق الكون صاغه فى معدن نفيس من أسلوب عميق ... وإذا أراد للنفس أن تضحك لتلهو ساعة عن تعب الحياة استخدم معدنا رقيقا من أسلوب خفيف .

ولو أنه صنع العكس ، وكتب « هاملت » بأسلوب « زوجات « وندرسو » المرحات » لكان كالصائغ الذى لا يستطيع أن يلائم بين الجوهر والخاتم ... والمقصود بالأسلوب هنا ليس بالطبع اللغة وحدها ؛ بل ما تحمله اللغة فى جوفها من ألوان الصور والأفكار ... وأسلوب الفنان : بمعنى الطابع ، واحد بلا شك فى سمته العامة ... ولكنه يتغير فى درجة الدسامة أو الكثافة تبعا لألوان الطعام الفنى التى ينتجها ... فطابع « شيكسبير » واحد فى فنه ، ولكن درجة الدسامة فى أسلوبه تختلف باختلاف أنواع مسرحياته ... كذلك طابع « بتهوفن » واحد فى موسيقاه ، ولكن درجة الدسامة تختلف فى بعض السنفونيات عنها فى بعض السوناتات .

وهذه الدسامة والرقة والعمق والخفة ؛ حالات تتعاقب على

الفنان ؛ تعاقب الليل والنهار ، والخريف والربيع ، دون أن تخضع لترتيب منطقى ... فقد يرى البعض أن المنطق يقضي أن يبدأ الفنان حياته بالخفة وينتهى إلى العمق ... ولكن هذا المنطق لا يخضع له الفنان ، فـ « شيكسبير » بعد أن بهرنا بعمقه فى « هاملت » أضحكنا بخفته فى « العبرة بالخواتيم » . و« بتهوفن » بعد أن وضع فى سنفونيته الخامسة العظيمة روح الفلسفة ، تجده قد مزج سنفونيته الثامنة الرقيقة بنسيم الخفة ، فالفنان لا يسير دائما فى خط مستقيم ... والتطور عنده ليس الانتقال المباشر من حسن إلى أحسن ، أو من عميق إلى أعمق ... ولكنه كالطبيعة يتطور من خلال التجربة الذاتية تبعا لقانون الفعل ورد الفعل ... أى من خلال تجارب متباينة تكشف عن إمكانيات الذات فى اتجاهاتها المختلفة ... والفعل ورد الفعل هما أداة التجربة الكاشفة عن الإمكانية ، لا عند الإنسان وحده ، بل عند الكائنات جميعا ... فالشجرة تنتقل من الاخضرار فى الربيع إلى الذبول فى الخريف ، ثم تعود إلى الاخضرار ، ثم إلى الذبول ، وهكذا دواليك ... وقد يبدو فى ذلك أنها تدور حول نفسها ولا تتحرك ، ولكن هذه

الحركة حول نفسها هى فى ذاتها دليل الحياة ، وهى القوة الدافعة إلى الأمام بعد ذلك : أى إلى التطور من خلال الأجيال الأخرى المتعاقبة فى الأشجار ... كذلك الحال فى حياة الأرض والكواكب ، فهى لا تسير فى خط مستقيم على نحو مباشر ؛ بل تدور أولا حول نفسها ، ثم حول الشمس : ولكنها مع ذلك تسير فى الفضاء إلى الأمام فى إطار المجموعة الشمسية بأكملها ... كذلك الحال أيضا فى الإنسانية : فإن الحضارة فيها يتقاذفها الفعل ورد الفعل ، فتقع حينا فى الظلام ، ثم تعود إلى النور ، فى حركة كحركة الليل والنهار ، ولكنها تسير ... فكلمة التطور إذن لا تعنى — عند الطبيعة والبشرية والفكر والفن — السير إلى الأمام سيرا مطردا مباشرا ... ولكنه التقدم خلال اختبارات وعقبات الفعل ورد الفعل ... فنحن جميعا من بشر وأرض وكواكب نسير ونحن ندور ، ونصل إلى الغد عن طريق دورة الليل والنهار وتعاقب الظلام والنور ... فكرة التطور على هذا الوجه تجدها فى مسرحيتى « شهرزاد » ...

ومع ذلك ، من يدرى حقيقة ما نسميه النور والظلام ،

والارتفاع والانخفاض ، والعمق والخفة ، والدسامة والرقة ؟...
لعلها كلها ، على اختلافها ، حركات ضرورية لتكون الحياة حياة ... ولعلها كذلك فى محيط الأدب والفن ، هى العناصر الضرورية التى يتألف منها « التعبير » .

فملكة التعبير عند الأديب أو الفنان لا يمكن أن تظهر كل أشعتها وألوانها وأنغامها إذا لعب بها على وتر واحد مهما يكن هذا الوتر قويا بليغا صافيا نقيا ... ماذا كنا نفضل وماذا كان يفضل الفن الإنسانى ؟... أن يخرج لنا شكسبير كل مسرحياته على نسق « هاملت » أسلوبا وفكرا وارتفاعا ؟... أو يلون لنا كل هذا التلوين فى التعبير ، فيجدّ مرة ويهزل أخرى ، ويعبس ثم يبسم ، ويرتفع ثم يتبسط ، ويطرق متأملا ثم يقهقه ضاحكا ، ويكون تارة فيلسوفا وتارة مهرجا ، وحينا شاعرا ، وحينا ساخرا ... إن عظمة شيكسبير هى فى أنه استطاع أن يكون كل ذلك ... وقدرته هى فى أنه ملك من أوتار التعبير مقدارا أخرج كل الألوان وكل الأنغام وكل الأصوات وكل الضحكات ...

ذلك هو « التعبير » ...

قوته ليست فى مجرد ارتفاعه ؛ بل أيضا فى اتساعه ...

والتعبير من غير شك هو كل شىء فى نظر الفن ...

ولكن « التعبير » ليس كل شىء فى نظر « التعادلية » فقوة التعبير يجب أن تقترن فى الأدب والفن بقوة « التفسير » ...

ما هو « التفسير » ؟...

هو الضوء الذى يلقى على موضوع الإنسان فى الكون والمجتمع ...

فالأدب أو الفن التعادلى يجب أن تتوازن فيه القوة المعبرة والقوة المفسرة ...

فالقوة المعبرة وحدها لا تكفى ، لأنها قد تكشف عن مجرد وجودها ... ولكنها قد لا تشع ضوءا يكشف عن وجود غيرها ... القوة المعبرة قد تكون جميلة فى ذاتها كاللؤلؤة ... ولكنها مثلها : حبيسة جمالها ... لا تضىء غيرها ... إنها ليست كالماسة المتألقة التى تشع فى الظلام أضواءً تكشف عن وجود أشياء أخرى ...

والأديب أو الفنان قد يعبر عن الحياة ، ولكنه لا يفسرها ...

أى أنه قد يجيد وصفها بالحالة التى هى عليها ، أو يجملها بوشى مصطنع ، أو يقبحها بتشويه مقصود ، وهو فى كل هذه الأحوال يريد اللهو بأداة التعبير تارة ، أو استخدامها للدعاية تارة أخرى ...

ولكن الوقوف عند حدود التعبير ليس كل مهمة الأديب أو الفنان التعادلى ... لأن التعبير وحده على علو قيمته الأدبية والفنية ، قد يحبس أهداف الأدب والفن فى نطاق التهذيب الروحى والإمتاع النفسى ، ومهما يكن نبل هذه الأهداف وكفايتها ، فإن المطلوب من الأديب أو الفنان — خصوصا فى العصر الحديث — أن تمتد رسالته إلى أبعد من هذا النطاق .

المطلوب منه هو أن يهذب ويمتع ، ثم يلقى فى نفس الوقت ضوءا كاشفا موجها فى طريق الإنسانية .

فالأدب أو الفن يجب أن يكون معبرا ومفسرا : أى أن تتعادل قوى التعبير وقوى التفسير فى الأثر الأدبى أو الفنى ... فإذا طغت قوة التعبير طغيانا بالغا ، فإن قسطا هاما من رسالة الأديب أو الفنان لم يبلغ للناس ... وإذا طغت قوة التفسير حتى كادت

تتلاشى بجانبها قوة التعبير ، فإن صفة الأدب أو الفن ذاتها تهدد بالانهيار ... إذ لا بد لوجود أى أدب أو فن من ضمان قوة التعبير قبل كل شىء ... فموهبة التعبير الأدبى أو الفنى ، أى بالاختصار : الأديب أو الفنان يجب أن يوجد أولا بأداة أسلوبه الرائعة البارعة القوية قبل النظر فى أمر الرسالة التى سيحملها .

التعبير يشمل الأسلوب والموضوع : أى الشكل والمضمون . وبه يمكن أن يتم الأثر الأدبى أو الفنى فى ذاته ...

أما التفسير ؛ فهو الرسالة التى يحملها الأثر الأدبى أو الفنى بعدئذ للبشرية ، ليقول فيها كلمته عن وضع الإنسان فى كونه وفى مجتمعه .

وليس كل أثر أدبى أو فنى يحمل تفسيرا أو رسالة فى هذا الشأن ، فكثير من الآثار رسالته هى فى مجرد روعة تعبيره ... فالبحترى مثلا هو تعبير ... فى حين أن أبا العلاء تعبير وتفسير معا ، لأن الكثير من شعره يحمل إلينا رأيه فى وضع الإنسان ومصيره ... وشيكسبير هو فى شعره الغزلى تعبيرا ، أما فى مسرحياته — مثل « هاملت » وغيرها — فهو تعبير وتفسير معا .

وبتهوفن فى « سوناتا ضوء القمر » هو تعبير ... بينما هو فى السنفونية الثالثة يحمل إلينا كلمته فى الإنسان والبطولة ، وفى السنفونية الخامسة ينقل إلينا قولته فى الإنسان والقدر ... وكذلك فى السنفونية التاسعة وفى كثير من كونسيرتاته يريد أن يقول لنا شيئا أكثر من مجرد اللحن الجميل .

والتعبير وحده قد يؤدى إلى « الفن للفن » إذا أسرف فى الهيام بجمال الشكل والتأنق فى المبنى على حساب المعنى والمضمون .

والتعبير وحده كذلك قد يؤدى إلى « الفن الملتزم » إذا أسرف فى التقيد بمعنى خاص ومضمون معين ليس إلى التحرر والاستقلال عنهما من سبيل .

فالفن للفن هو حبس الفنان فى هيكل الشكل .

والفن الملتزم ؛ هو حبس الفنان فى سجن المضمون .

والسجن فى الحالين يمنع الفنان من تبليغ رسالته كاملة ... تلك الرسالة التى تنبع من الحرية دائما ، لتبشر بالحرية .

قد تسألنى بعد ذلك :

هل الحرية فى الأدب أو الفن مناقضة للالتزام ؟ أليس للأديب أو الفنان أن يلتزم برأى يدافع عنه ويبلغه الناس ؟... وما دمنا نقول إن للأدب أو الفن المعبر المفسر رسالة يحملها للبشرية ، فكيف تكون رسالة بغير التزام بالتبليغ ؟

وما من شك فى أن مجرد حمل رسالة معناه التزام بتبليغها ... ولكن الخلاف دائما هو فى مصدر الرسالة التى يحق للفنان أو الأديب الحر أن يحملها ؟...

هل يحق للمفكر الحر أن يحمل رسالة تصدر من سلطة « العمل » ؟... فى هذه الحالة سيكون مجرد آلة مسخرة ، لا أداة مفكرة ... وإذا آمن حقا بهذه الرسالة ، هل يجوز له الالتزام ؟... فى رأيى نعم ...

ولكن من جهة أخرى : الإيمان الطويل الأمد هو بالنسبة إلى الفكر عاهة ... لأن الفكر السليم هو الفكر المتحرك ... وحركة

الفكر معناها حرية شكه ... وحرية الشك معناها حرية المراجعة للقيم والأوضاع ...

فإلى أى مدى إذن يباح للمفكر أن يراجع الرسالة التى التزم بحملها ؟...

فإذا قيل له : لا تستطيع أن تراجع أو تناقش أو تتحلل بما التزمت به ، فمعنى ذلك هو إلغاء الفكر وتحويله إلى إيمان ...

فنحن إذن أمام مشكلة :

لأن الالتزام الطويل الأمد برأى معين يؤدى إلى الإيمان ... والإيمان يؤدى إلى تعطيل الفكر ... والفكر يجب أن يتحرك ليوجد المفكر ... والمفكر إذا فكر ناقش الالتزام ، وقد تؤدى مناقشة الالتزام إلى التحلل منه ...

لذلك عندما ينبع الرأى الملزم من سلطة العمل ، أى سلطة حاكمة ؛ فإن مناقشة الالتزام لا تباح ولا تشجع ... فيصبح الرأى شبه إيمان ...

ولكن الإيمان فى الرسالات السماوية مقبول ، لأن الأمر كله متعلق بموضوع علوى بعيد عن متناول الفكر ، فنحن عندما نؤمن

بفكرة الله قد رضينا مختارين أن نلتزم بتعطيل التفكير فى ماهيته وفى حكمه . واكتفينا بالإيمان ، لعلمنا أن فكرنا البشرى لا يصلح أداة لإدراك قوانين من هو فوق البشر ...

ولكن السلطة الحاكمة أو السلطة الممثلة للعمل فى دولة من الدول ، لماذا نعطل أمامها فكرنا ونلتزم برأيها مؤمنين بها الإيمان الذى لا يقبل التمحيص ولا المناقشة ولا المراجعة ؟... فالالتزام الدائم إذن برأى صادر من سلطة بشرية هو نوع من الإيمان لا يجب أن يفرضه بشر على بشر ...

أما الالتزام المباح فى نظرى للمفكر أو الأديب أو الفنان ، فهو ذلك الذى لا يعطل تفكيره الحر ، ولا يمنعه من أن يناقشه ويراجعه ويعدّله فى أى وقت شاء ، سواء كان هذا الالتزام صادرا عن رسالة خاصة له ، أو رسالة عامة للدولة كلها ، أو لحزب فيها ...

ولقد سبق لى أن عرضت موقفى تجاه الالتزام فى الأدب ... فقلت فى كتابى « فن الأدب » : « إن الأديب يجب أن يكون حراً ... لأن الأديب إذا باع رأيه ، أو قيّد وجدانه ؛ ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب ، فالحرية هى نبع الفن ... وبغير الحرية

لا يكون أدب ولا فن ... لأن الذى يقول لفنان أو أديب : التزم بكذا أو بكيت فقد قتله ... إنما التزام الأديب أو الفنان شىء ينبع حرا من أعماق نفسه ... فإن لم ينبع الالتزام حرا من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى الوجود ... يجب أن يكون الالتزام جزءا من كيان الأديب أو الفنان ... فالالتزام المثمر للفنان فى رأيى هو الالتزام الذى ينبع من طبيعته ، وهنا لا يتعارض الالتزام مع الحرية ... قد تسألنى عن مدى انطباق هذا الرأى على ما كتبت ؟... فأقول لك : ارجع كذلك إلى كتابى « فن الأدب » فقد ذكرت فيه : أن الموقف مختلف كل الاختلاف فيما يختص بإنتاجى أنا على وجه خاص ، فعلى الرغم من مناداتى بالحرية ، فإن عملى فى أكثر كتبى هو من الأدب الملتزم ... إنى منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشىء لنفسى أسلوبا جميلا يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين ... هذا الفن للفن فى الأسلوب ما خطر لى أن أمارسه ، ولكننى أردت أن أتخذ من الأسلوب خادما لأهداف أخرى غير مجرد الإمتاع ... هذه الأهداف — كما ظهرت واضحة للناس —

كانت قومية وشعبية وإصلاحية فى « عودة الـروح » وفى « عصفور من الشرق » وفى « يوميات نائب فى الأرياف » وفى « مسرح المجتمع » إلخ ... وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان : فى « أهل الكهف » وفى « شهر زاد » وفى « سليمان الحكيم » وفى « بجماليون » وفى « الملك أوديب » إلخ ... فهذه القصص لم تكتب لإظهار جمال الأسطورة ، كما كتبت « مجنون ليلى » لشوقى ، فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور ، وأبرزت روعة الفن للفن نفسه ، إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر ، لا غاية فى ذاتها ... قضية خاصة بالإنسان ومصيره ...

فأنا فى الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط ، بل لأفسر ... ولقد كان من الممكن أن تكون « عودة الروح » مثلا مجرد قصة تصور الحياة فى حى السيدة زينب بين أسرة متواضعة ، وتخلق أشخاصا نابضين بالحياة يعيشون فى صميم بيئتهم ، وفى هذا الكفاية من حيث الفن ، لأن خلق الحياة هو عمل فى الفن كاف ... ولكنى ألزمت نفسى بتفسير خاص للروح المصرية فلم تنته مهمة القصة

عند حد التعبير والتصوير لبيئة وأشخاص ؛ بل اتخذت موقفا ينم عن رأى معين ؛ وهذا الرأى استخلصه النقاد الأجانب من زوايا مختلفة ، وإن كان واحدا فى جوهره ، فالناقد « جان ديستيو » قال :

« إننا نلمس مؤلفاً من تلك المؤلفات التى لو وجدت عندنا لنعتها « موريس بريس » بقصة النشاط القومى ، وليس لمدلولها غير تفسير واحد : هو أن الروح العائدة إنما هى « روح فلاحى مصر العريقة فى القرية » ... وقال الكاتب اليسارى النزعة « مارسيل مارتينية » : إنه لمن الظاهر فيه — فضلا عن ذلك — وجود بعض عناصر أدب « الطبقات الفقيرة » أو على الأقل أدب شعبى لا شك فيه » ... وقالت الكاتبة « تيريزميربان » : « إن عودة الروح » ليس مؤلفاً وليد الخيال ، ولكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب فى حالة تطور سريع ... » .

فعودة الروح ليست إذن قصة تصور حياة ، ولكنها بعد ذلك قصة تفسر حياة ، وتفسير حياة شعب معناه اتخاذ رأى معين تجاه هذا الشعب ... ولقد كان لفكرة الرواسب القديمة التى تراكمت

على مدى الحضارات المختلفة فى أعماق الشعب المصرى ؛ فكونت منه قدرة خفية تسعفه فى أزماته وترد إليه روحه كلما استهدف لخطر التلاشى والانهيار ... هذه الفكرة التى اعتنقتها القصة كان لها أثر — كما لاحظ بعض نقادنا — فى مجال « العمل » : أى السياسة . هذا التفسير أيضا : أى الرأى والموقف تجاه الحكام والمحكومين قد ظهر فى « يوميات نائب فى الأرياف » فهى ليست مجرد تصوير لحياة الفلاح ، ولكنها كما قالت صحيفة « سبكتاتور » الإنجليزية : « إن فى هذا الكتاب عن مهزلة الفساد الاجتماعى أكثر من مجرد استنكار ، وكما حدث مع كتاب الروس فى القرن التاسع عشر ، وكما حدث مع كاتبنا « ديكنز » يشعر الكاتب المصرى أن مجرد العطف لا يكفى ... إلخ » .

من هذه التعليقات التى أذكرها ، تستطيع أن تجد جوابا عن سؤالك ، وتعرف اتجاهى من كتبى نفسها كما طلبت ...

وهنا أذكر أيضا ملاحظة لأحدهم فى تفسير مسرحياتى الذهنية بأنها تكشف عن عجز الإنسان تجاه مصيره ، فقد رأى أن هذا الوضع للإنسان سبق أن أبرزه سوفوكل فى « أوديب » إبرازا

صادقا ... كما أظهره شكسبير فى « روميو وجولييت » على أروع صورة ... فالآلهة قد أرادوا عامدين أن يحطموا أوديب ... والقدر تدخل تدخلا مباشرا على شكل مصادفات متلاحقة فرقت بين روميو وجولييت ... ولكن الذى تم عندى فى رأيه هو أنه لم يحدث أى تدخل مباشر ، لا فى هيئة إرادة علوية متعمدة ، ولا فى صورة مصادفات طارئة ؛ بل هى قوانين خفية تسير فى اتجاهها العادى ، فتحد من إرادة الإنسان ... فقانون الزمن فى « أهل الكهف » يعمل عمله المعتاد فيسير قدما ولا يغير اتجاهه ، ولا يعود إلى الوراء ثلثمائة عام ليجمع بين مشلينيا وبريسكا ... فالقوة التى فرقت بين مشلينيا وبريسكا ليست هى القوة القدرية المعاكسة التى فرقت بين روميو وجولييت ، فجعلت المصادفة فى أول الأمر تدفع روميو إلى قتل ابن عم جولييت ، ثم جعلت المصادفة فى آخر الأمر تحدث طاعونا يعطل الرسول الحامل إلى روميو رسالة بما يدبر ، مما أدى إلى المأساة ... كلا ... إن المأساة المفرقة بين الحبيبين فى « أهل الكهف » هى قوة طبيعية ... هى قوة الزمن : أى المجتمع الجديد ... فبريسكا أيقنت أن من

المستحيل أن يقبل مجتمعها فكرة الجمع بينها وبين رجل عاش منذ ثلثمائة عام ... قوة المجتمع هذه ظهرت كذلك عندى فى مسرحية « الملك أوديب » ... فهو عندما قيل له إنه متزوج بأمه لم يتصور ذلك ، لأنه لم يرها إلا امرأة فى تمام نضجها فأراد أن يصمد كما أراد مشلينيا أن يصمد ، وأن يتحدى وأن يبقى على أسرته ، ولكن جوكاستا — شأنها شأن بريسكا — لم تستطع تحمل هذا الخاطر ... إن قوانين المجتمع المتأصلة فى أعماق كيانها قد حكمت عليها بالفناء ، فشنقت نفسها ...

إرادة الإنسان عندى إذن حرة فى حدود خاصة ، وهذه الحدود هى قوانين ، وليست إرادات طاغية ... هى نواميس ، وليست مصادفات طارئة ... فالإنسان عندى عاجز حقا أمام مصيره فى النهاية ... هذا المصير الذى تدفع إليه قوانين ونواميس يحاول دائما أن يتخطاها أو يحطمها ... نعم ... إن من يمعن النظر فى هذه المسرحيات يجد مشلينيا يحاول ذلك ويمكث يكافح ليقنع بريسكا بتجاهل عقبة الزمن ... ونجد شهريار يحاول تحدى النواميس بمحاولة تحطيم بشريته ... ونجد سليمان يحاول تحدى

قانون الحب واقتحام قلب بلقيس ، وأوديب أراد تحدى المجتمع والبقاء مع أمه زوجا ... وبجماليون أراد تحدى الآلهة وتحطيم التمثال الذى أفسدوا فنه بما نفخوه هم فيه من روحهم ... جميع هؤلاء الأشخاص لم يستسلموا لمصيرهم إلا بعد التحدى والنضال والكفاح ... ولقد أرغموا إرغاما على التسليم فى آخر الأمر ... لأن القوى المسيطرة ليست من صنع البشر ... ولكن يبقى الكفاح — ولو ضد المستحيل — وهو وحده واجب البشرية ...

التفسير إذن فى الأثر الأدبى أو الفنى هو مناط المسئولية ... لأنه هو الرأى ، وهو الموقف ... وما دام هناك رأى ، فهناك التزام به ، ومسئولية عنه ...

أما التعبير فهو حر طليق كالحياة نفسها ، ما لم يقيد نفسه كما قلنا بالمغالاة فى الشكل فينحرف إلى الفن للفن أو يحبس نفسه فى مضمون دائم معين بالذات فيصبح شأنه شأن الفن الملتزم ...

وهنا قد يخطر على بالك سؤال :

ما هو الفرق بين الالتزام فى التعبير والالتزام فى التفسير ...

ما دام كل منهما يمكن أن يؤدى إلى الفن الملتزم ؟...

جوابى : هو أن الالتزام فى التعبير قد لا يعكس رأيا خاصا ، فالموقف هنا هو مجرد الارتباط بموضوع بالذات ... كأن يعكف الأديب أو الفنان على تصوير طبقة معينة من طبقات الأمة لا يحيد عنها ... ولكنك لا تلمس من خلال هذا التصوير والخلق فى هذه البيئة المعينة : أى اتجاه شخصى أو رأى خاص ... أعنى أى تفسير

بعينه ...

فى حين أن الالتزام فى التفسير لا يتقيد بالموضوع ... ولكنه يتقيد بالرأى ... فالأديب أو الفنان هنا يعالج الموضوعات المختلفة ويصور الطبقات المتباينة ، ولكنك تخرج من أعماله كلها بتفسير خاص : أى برأى وبموقف وباتجاه ...

وكما قلنا : حيث يوجد الرأى توجد المسئولية ... ولكن المسئولية ، كما عرفنا ، لا تنبع إلا من الحرية ... لأن المقيد غير مسئول ...

فكيف نوفق إذن بين الالتزام والمسئولية و« الحرية » ؟...

لا يمكن التوفيق إطلاقا إلا إذا كان الرأى رأيك أنت ، والالتزام به نابعا من طبيعتك أنت ، كما سبق أن قلت لك ... أى أن الرأى والالتزام يجب أن يكونا صادرين من صميم حريتك ، لتكون مسئولا عنهما مسئوليتك عن حريتك ... مسئول أمام من ؟... أمام نفسك وحدها التى منها خرج الرأى حرا ...

وهاهنا كل الجوهر فى كيان المفكر الحر :

الرأى رأيه ، ومسئوليته أمام نفسه .

فإذا كان الرأى صادرا من سلطة العمل : أى سلطة الحكم ، وكانت المسئولية أمام هذه السلطة أيضا ، فما هو القول ؟...

لا قول سوى أن « الفكر » بمسئولياته يكون عندئذ قد نحى جانبا ليقوم « العمل » وحده بالأعباء والتبعات ... ولقد قلتها فيما سبق : « إن أزمة العالم اليوم مردها إلى أن سلطة العمل قد اغتصبت المسئولية الكاملة فى إدارة دفة الدنيا وتوجيه مصائر البشر » .

ما من أحد اليوم يستطيع الزعم بأن « الفكر الحر » هو الذى يوجه عالمنا الحاضر ... لقد اضطهد علماء الذرة الذين رفضوا الرضوخ لأوامر السلطات الحاكمة ، رغبة منهم فى إنقاذ البشرية ونزولا على حكم مسؤولياتهم أمام أنفسهم وضمائرهم .

أما بقية العلماء والمفكرين فقد أذعنوا وسايروا وتعاونوا .

فى كل دول الأرض نجد سلطة العمل متفاهمة متحدة فى وضع واحد : هو إخضاع الفكر لخدمة أغراضها .

هذا الاتحاد والتفاهم من جانب « العمل » يقابله اختلاف وانشقاق من جانب « الفكر » .

ماذا لو استطاع « الفكر » فى كل أمم العالم أن يتحد ويتفاهم ويوحد سلطانه ، ويقول كلمته الحرة فى وضع البشرية ، ويحمل مسئوليته أمام نفسه وحدها ، ويرفض فى وقت واحد ، فى كل رقعة من الدنيا ، أن يتعاون مع سلطات العمل فيما يعتقد ويقرر أنه ضار بمصلحة الإنسان والإنسانية ؟...

ماذا لو وقف الفكر كله فى الدنيا كلها هذا الموقف الموحد ؟... أترك التقدير لك ...

من هنا جاء إصرارى على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها واستقلالها تجاه سلطة العمل ، وقد طبقت هذا المبدأ حتى الآن على شخصى تطبيقا صارما ... فابتعدت عن محيط السياسة العملية ، ورفضت الانضمام إلى الأحزاب السياسية ، واعتبرت المفكر كالراهب ، مسوحه هى حريته ... وتحدثت عن البرج العاجى والاعتصام به ... ولم أقصد بذلك طبعا العزلة عن الحياة والانفصال عن المجتمع ، كما فهم البعض خطأ ، ولكنى قصدت عزل رجل الفكر عن السياسة الحزبية ، حتى لا يستخدم آلة مسخرة فى أيدى رجالها ، فيفقد بذلك حرية النظر الحر إلى الأشياء ...

هذا الإصرار منى ، على الرغم من الظروف المواتية التى عرضت لى مرارا للانخراط فى سلك حزب ، والوصول به إلى السلطان العملى ، قد بلغ أحيانا حد الغلو والإغراق ... ولكن الفكرة التى استولت على رأسى ، ولم تزل ، هى : أن مسئولية

المفكر الحر الحقيقية إنما هى أمام نفسه وحدها لا أمام حزب من الأحزاب ، ولا حاكم من الحكام ... وأن المفكر الذى يترك مكانه لينضوى تحت لواء سلطة العمل الممثلة فى حزب أو حكم هو مفكر هارب من رسالته ... وأن هذا الهروب إلى معسكر الساسة والحاكمين هو الذى جرّد الفكر من سلطانه ، وجعل منه تابعا لا متبوعا ...

ولم يخطر فى بالى قط أن أعزل الفكر عن أى نشاط سياسى أو اجتماعى ... فالعزلة التى دعوت إليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة ، وعن الأحزاب لا عن المجتمع ... فالفكر فى كل ألوانه من أدب وقصص وفن يجب فى نظرى أن يعنى بكل ما يجرى فى مجتمعه وعصره من شئون السياسة والاجتماع ... لأنه ما دام يعنى بالبشرية ، وما دامت البشرية متصلة بالسياسة والمجتمع ، فلا بد للمفكر أو الأديب أو الفنان أو يعيش عصره كله ومجتمعه كله بما فيهما من شئون سياسية واجتماعية ... لأن تلك هى البشرية ... وفى كتبى «شمس الفكر» و«شجرة الحكم» و«تأملات فى السياسة» و«براكسا أو مشكلة الحكم» ... إلخ ... خلاصة

وافية لموقفى من السياسة والمجتمع ...

قال أحدهم : إن موقفى لم يتخذ وضعا عمليا ...

وهذا صحيح ... لأن هذا بالذات هو مذهبى ، فمذهبى يرفض رفضا قاطعا أن يغير الفكر صفته ، وأن ينقلب عملا ...

وإنى حتى الآن لم أفقد الأمل فى قوة الفكر باعتباره سلطة مستقلة لها مقوماتها الخاصة وصفتها الذاتية ... وعندما أفقد هذا الأمل ، سألتمس فى الحال المعونة صاغرا لدى « العمل » ... وعندئذ أسير فى اتجاه بعض المذاهب الأدبية والفنية التى خضعت للعمل أو اندمجت فيه ، فأصبح من العسير عليها أن تنفض عنها بعض غبار الدعاية أو التسخير الذى لحق بها بالباطل أو بالحق ...

قد تسألنى إلى أى مدى يستطيع الفكر المستقل أن يؤثر فى « العمل » ؟...

ما من شك عندى فى أن الفكر المستقل يؤثر إلى مدى بعيد فى « العمل » ... أبعد بكثير من أثر الفكر المندمج أو الخاضع للعمل ...

لأن الفكر المندمج أو الخاضع يصبح حزبا أو تابعا فى محيط

الحكم السياسى ، وبذلك يفقد هيبته وكلمته ، لا فى نظر الأحزاب الأخرى ، بل فى نظر حزبه نفسه أحيانا ... فلا يسمح له بالتوجيه أو بالإيحاء ؛ بل يتلقى تعليمات رؤساء العمل للسير بمقتضاها ...

وقد تسألنى بعد ذلك : هل كان لموقفى المستقل أثر فى « العمل » ؟...

الحقيقة أنى لا أستطيع أن أجيب بنفسى إجابة قاطعة ؛ فمن العسير علىّ أن أعرف أثر كتاباتى فى الغير على وجه عام ... ولا أعتقد أن كتابا مثل « يوميات نائب فى الأرياف » كان له أثر مباشر فى إصلاح بعض ما أبرزه من عيوب الحكم والقضاء والإدارة فى الريف ... وإن كنت أعلم أن كثيرا من رجال الدولة قد طالعوه ...

على أن رأيى دائما فى رجال الفكر والأدب والفن أنهم ليسوا مطالبين بالإصلاح المباشر ... إن مهمتهم الحقيقية هى أن يعدّوا ويهيئوا رجال العمل والدولة والحكم للقيام بالإصلاح ... لقد قلتها يوما فى كتاب لى : « إن الأديب أو الفنان ليس مصلحا ،

ولكنه مصلح المصلح » ...

غير أنى أستطيع رغم ذلك أن أقول إنى رأيت مرة أثرا مباشرا لكتابتى فى أمر من أمور المجتمع ... فقد كتبت ذات يوم أقترح إنشاء وزارة لشئون المجتمع ، كما اقترحت أسماء وزراء بالذات ، من بين الموظفين الأكفاء ، فما انقضى شهران حتى تقلد الحكم رجل من رجال الدولة فنفذ الاقتراح وأنشأ وزارة أطلق عليها اسم « وزارة الشئون الاجتماعية » ، واختار عين الموظفين الذين اقترحتهم وزراء فى حكومته ... كيف تم هذا ؟... لا ريب أن استقلالى الفكرى يَسَّرَ كل ذلك ... فلو أنى كنت كاتبا حزبيا لما أوحيت بهذه الثقة ... ولكانت أسماء الذين اقترحتهم محل ظنون ، ولكان الاقتراح كله موضوع سخرية متحدية وريبة مستعلية ... إن « الفكر » المستقل الحر يستطيع دائما أن يكون سلطة هامة معادلة وموازنة لسلطة « العمل » ... وفى هذه الحالة يكون فى مقدور « الفكر » أن يصبح قوة دافعة وموجهة ومطورة لسلطان « العمل » ...

هذا مذهبى ...

قلت لك إن التعبير هو موهبة الخلق والإبداع ...

وإن التفسير هو الضوء الكاشف لوضع الإنسان ...

ولأوضح مرة أخرى هذا التعريف :

إذا كنت تعبر عن الحياة ولا تفسرها ، فأنت أديب أو فنان ...

وإذا كنت تملك تفسيرا للحياة ، ولا تملك موهبة التعبير عنها فأنت شيء إلا الأديب أو الفنان ...

وإذا كنت معبرا ومفسرا للحياة ؛ فأنت أديب أو فنان ذو رأى وموقف واتجاه ، ومن ثم فأنت مؤثر بطريق ما فى التطوير والتوجيه ...

هناك مع ذلك حالات يستطيع فيها التعبير وحده ، إذا كان بالغ القوة ، أن يحدث أثرا موجها مطورا بطريق غير مباشر ...

كما أن هناك ، كما سبق أن أشرت ، حالات يفسد فيها التفسير روعة التعبير ، إذا خرج عن حدود التناسق الفنى ؛ وعندئذ يبطل تأثيرهما معا ، لأن الأثر الأدبى أو الفنى يبدو عندئذ مفتعلا افتعالا

مضيعا لجوهر وجوده وهو الصدق ...

والمقصود بالصدق هنا هو الصدق الفنى ، أى الشعور المنبعث فى نفوسنا بأن الأثر الأدبى أو الفنى قد ولد ولادة طبيعية ، ولا يمكن بالطبع أن تكون الولادة طبيعية إلا إذا خرج الأثر الأدبى أو الفنى متناسق الأجزاء متناسب الأعضاء ... فإذا طغى فيه جزء على جزء فإنه يعتبر مسخا مشوها ، حتى وإن كان جميل الوجه ...

من أجل هذا كله كان الشرط الضرورى لحياة التعبير والتفسير معا هو إيجاد التناسب والتناسق بينهما أى : التعادل ...

قلت لك أيضا إن سلطان الفكر يجب أن ينهض معادلا لسلطان العمل ، فما هو المقصود بالفكر هنا ؟... هل هو العقل وحده ؟ هذه نقطة تحتاج كذلك إلى توضيح ، فالفكر المعادل والموازن للعمل إنما يشمل عندى القوى العقلية والقوى الروحية معا ، خصوصا فى نطاق الأدب والفن ... وهذه مسألة تختلف فيها المذاهب الأدبية والفنية المعاصرة ... فأكثرها يطرح القوى الروحية أو الدين ، ولا يستبقى غير القوى العقلية يستمد منها وحدها كل عناصر نشاطه ... من ذلك وجودية سارتر ، والواقعية الاشتراكية ، وغيرهما من المذاهب التى يصفونها بالمادية لأنها تقصر قوى الفكر فيها على العقل بمنطقه وحده ...

أما التعادلية فتطلق « الفكر » على قوتين ... هما العقل والقلب ، أعنى « المنطق » و« الإيمان » ، باعتبارهما منبعين للمعرفة البشرية ؛ لأن الحيوان الذى لا يعقل ولا يؤمن لا يملك غير منبع واحد للمعرفة هو : الغريزة ... والحيوان لا يؤمن ، لأنه

ـــ كما أشرت ـــ لا يدرك معنى الأرق ...

فالإنسان : الكائن الوحيد الذى يدرك ويعى الأرق ، إنما يتوسل إلى هذا الإدراك والوعى بوسيلتين : المنطق المنبعث من العقل ، والإيمان المنبعث من القلب ، الأول عكازه الدليل البين ، والآخر عكازه الشعور الخفى ...

وما دامت هاتان الوسيلتان قد منحتا للإنسان ، فلا بد إذن من بقائهما وتقويتهما وإنمائهما والبلوغ بهما أقصى حدود القدرة ، كل منهما فى مجاله ...

وقد سبق أن أشرت كذلك إلى أن الخلط بينهما عبث ... كما إن إخضاع كل منهما لمقومات غيره عبث أيضا ... فالعقل يجب أن يشك دائما ويطالب بالدليل ... والقلب يجب أن يؤمن دائما ويعفى من الدليل ... كل منهما يجب أن يجرى فى فلك مستقل ، وفى مجال نشاط مختلف ... فالقضاء على أحدهما لمصلحة الآخر تعطيل لإحدى ملكات البشرية ... وتدَخل أحدهما لخنق حرية الآخر عرقلة أيضا لسير الإنسانية ...

والتعادلية ترمى إلى بقاء كل منهما موازنا للآخر ، كما يتوازن

كوكبان يدور كل منهما حول نفسه ... ثم يسيران بعد ذلك معا إلى الأمام فى عين المجرى ...

وقد سبق أن بينت فى كتابى « تحت شمس الفكر » فى فصل بعنوان « منطقة الإيمان » كيف أن العقل والإيمان يمكن أن يعيشا جنبا إلى جنب فى كيان الإنسان ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يؤثر فى أسلوبه وهدفه ...

وبأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وإيمانه ، يستطيع الآدمى أن يحيا حياته الكاملة ...

ولعل أزمة الحضارة الحديثة علتها — كما قلت أيضا — أنها لم تحقق للإنسان حياته الكاملة ؛ فهو على الرغم من تألق العقل البشرى على نحو لم يسبق له نظير ، يشعر بنقص ، وهذا النقص يبعث فيه القلق ، أو على الأقل ، بعض هذا القلق الذى أصبح من سمات هذا العصر الذى نعيش فيه ...

والآن فلألخص لك التعادلية فى هذه المبادئ الخمسة :

أولا — أنت تعادلىّ إذا كنت تعتقد : أن الوجود هو التعادل مع الغير ... الأرض لا تكون بغير تعادلها مع الشمس ... لا يوجد مخلوق وحده ... كل كائن ، وكل صفة ، وكل حالة ، وكل وضع لا يوجد فى عالم المحسوسات ولا فى عالم المعانى إلا بالنسبة إلى غيره ... لا بد من غيرك لتكون أنت ... التعادلية إذن تقوم على الغيرية ... والوجود التعادلى يتلخص فى هذه العبارة :

« بغير الغير لا يوجد وجود » ...

ثانيا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل ، وأن مسئولية « الفكر » هى فى حريته واستقلاله تجاه « العمل » ...

وهذا مخالف لرأى المذاهب التى ترى اندماج الفكر فى العمل أو خضوعه له ... فالتعادلية متفقة مع الوجودية ومع الواقعية

الاشتراكية وغيرهما من المذاهب التى ترتكز على مسئولية الفكر فى التوجيه والتطوير ... ولكنها تختلف عنها فى أنها تدعو إلى استقلال الفكر عن العمل ، ولا تبيح لرجل الفكر أن يندمج فى العمل ، كما هو الحال فى وجودية سارتر ، الذى عمل بنفسه مع زملاء له على تكوين حزب سياسى ، كما عمل على مؤازرة أحزاب اليمين تارة وأحزاب اليسار تارة أخرى ... كذلك لا تبيح التعادلية لرجل الفكر أن يخضع الفكر للعمل ، كما هو الحال فى البلاد ذات النظم التى لا تسمح للفكر أن يتخذ رأيا أو موقفا لا يساير الاتجاه المرسوم ...

أنت إذن تعادلى إذا كانت مسئوليتك هى أن تجعل من الفكر « قوة » حرة بأداتها المستقلة وأسلوبها الخاص لتعادل وتوازن قوة « العمل » بأداته وأسلوبه ...

ثالثا — أنت تعادلى إذا اعتقدت أن الخير والشر وضعان للإنسان ... وأن الخير يجب أن يعادل ويوازن الشر ، وأن جزاء الشر ليس الاقتصاص من حرية الشخص ... لأنه لا موازنة بين الشر والحرية ، إذ لا علاقة ألبتة بينهما ... إنما العلاقة هى بين الشر

والخير ... فالجزاء إذن هو عمل خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر ... كما أن الضعف والنقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى معوضة معادلة ، على الإنسان أن يستخرجها من مكامنها فى نفسه ...

رابعا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن العقل بمنطقه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وإيمانه : أى أن الشك يمكن أن يعيش مستقلا موزانا للإيمان ...

خامسا — أنت تعادلى إذا كنت ترى أن الأثر الأدبى أو الفنى يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير ...

* * *

قد تسألنى : ما هو مستقبل الفكر المعادل للعمل ؟... فأقول لك متفائلا : إنى أرى المستقبل كله له ... لأن هذا هو الوضع الطبيعى ، وإذا كنا إلى هذا العصر نجد الفكر تابعا للعمل : أى السلطان ، فإن ذلك لن يكون فى الغد ... فإنى أتنبأ للفكر فى العصور القادمة بقوة عظيمة تنبع من ذاته ، كما تنبع الطاقة من ضوء

الشمس ، فتحرك بقوتها المركزة الذاتية مصائر البشر نحو الأهداف العليا التى يرسمها الفكر بعيدا عن أغراض السلطان ، ويكون له من النفوذ والإيحاء ما يرد سلطة العمل إلى الصواب إذا انحرفت وجارت ، دون أن يفقد صفته الخاصة فينقلب عملا ، أو يتخذ أسلوب رجال السياسة فيصبح جدلا ...

* * *

قد تسألنى كذلك : ما هو مستقبل التعادلية فى علاج الإنسان ؟... فأقول لك متفائلا أيضا :

إن التعادلية باعتبارها مذهب يقاوم الضعف والعجز والنقص والقبح ، بإيمانها بوجود القوى المعوضة الموازنة : أى المعادلة ، وبإعلانها طريقة واضحة للمقاومة ، وهى نهوض الإنسان — سواء كان فردا أو شعبا — للكشف عن القوى المعوضة المعادلة وإظهارها وتنميتها ... هذا المذهب يلغى أثر الضعف والعجز ، عن طريق استخراج المعوض والمعادل ... كل شعب أو مجتمع أو رجل أو امرأة أو فنان أو عامل أو أديب إلخ ... يجب أن يسأل نفسه هذا السؤال ، إذا أحس من نفسه عجزا طبيعيا خطيرا :

ما دمتُ عاجزا ضعيفا فى هذه الناحية ، فلا بد أنى قوى قادر فى ناحية أخرى ... ما هى ؟...

لا يوجد إنسان ضعيف ... ولكن يوجد إنسان يجهل فى نفسه موطن القوة المعوضة ...

قم وقاوم ... وابحث عنها وكافح لإظهارها وتنميتها ، لتعادل بها عجزك وضعفك ... يوم تنهض الإنسانية كلها تفعل ذلك ... كم من مناجم للقدرة ستتفجر لتعوض عن مآسى العجز البشرى .

أما بعد ... فأظن أنى قد أوجزت لك موقفى فى خطوطه الرئيسية ... فإذا أردت تفصيلا فعليك أن تستخلصه بنفسك . وهذا ميسور لك إذا أعدت قراءة كتبى على هذا الضوء ... ولا أقصد بالطبع كل ما كتبت ... فما من كاتب يستطيع أن يتقيد فى كل أعماله بعين الفكرة ... وإلا كان مجنونا ... فالجنون أحيانا هو الجمود على فكرة معينة ... ولكنى أقصد الكتب التى تحمل رسالة الكاتب ... وهى التى يجب أن تقرأ قراءة مستكشفة ... وهذا أمر لا يستطيعه كل القراء ... ومن هنا كانت القراءة فى بعض الأحيان فنا ... بل أداء إيجابيا معادلا للكتابة لأن القارئ المكتشف يخلق شيئا ... شيئا موجودا من قبل ، ولكنه مجهول ... وما قيمة الموجود إن لم يكن معلوما ؟؟...

شأن القارئ المكتشف للمعانى والاتجاهات شأن الرحالة المكتشف للجزر والقارات ؛ إنها مخلوقة قبل رحلته ، ولكنه هو الذى أخرجها من ضباب يشبه العدم إلى نور أوجدها فى نظر

الناس ... لذلك كانت نعمة الكتب قراءها ، وآفة الكتب قراءها أيضا ... فمن القراء من يشبه البحّار الجاهل الذى يسير بغير بوصلة ولا يعرف شماله من جنوبه ، ولا يحسن إلا أن ينشر شراعه وينطلق فى بحره على غير هدى ، فإذا ضل لم يتهم جهله ، إنما اتهم البحر وخلوه من الجزر والشواطئ .... وقد لا يضل ، ولكنه يجول جولة خاطفة ثم يعود سريعا ليقول : إنه تنزه نزهة لا بأس بها ، ولكنه لم يصادف ما يسترعى الالتفات ... على أن هناك نوعا من القراء أعجب من ذلك ... هو من يقرأ الكتاب ، لا ليستخرج منه رأى المؤلف ؛ بل ليطبق عليه رأيه هو وما يعتنقه هو من نظريات فى الفكر والأدب والفن فهو يطالع كتابك ليعرف هل أنت من رأيه ؟... فهو لا يريد أن يعرف عنك شيئا ، ولكنه يطالبك أنت بشىء : هو أن تكون قد كتبت كتابك طبقا لما يريده هو من موضوعات لم يخطر ببالك أن تتناولها ... هذا القارئ هو عكس المكتشف ... فهو كالبحّار الذى يخرج إلى البحر لا ليكتشف ما فيه من جزر ؛ بل ليقول بعد جولته السريعة : كان يجب على البحر أن يبرز لنا على مقربة منّا جزيرة صالحة للزراعة ،

فيها مناجم حديد وآبار بترول .

كل هذه الأنواع من الملاحين لا يمكن أن يكتشفوا شيئا — لأنهم لا يعرفون ولا يريدون ولا يحاولون ... ولذلك يخرجون كلهم إلى البحار ويعودون منها ، ولا يقولون لك شيئا نافعا مثمرا عما شاهدوا ...

هذا عدا صنف آخر من القراء يزيفون أفكارك ، عندما يستعصى عليهم فهمها على حقيقتها ، أو يعبثون بها فتبدو شيئا غثا ضحلا ، هو ولا شك من صنعهم هم ... لا من صنعك أنت .

وخير من هؤلاء جميعا القارئ المتواضع الذى يحاول بكل أمانة وطيب إرادة وحسن طوية أن يتابع أفكارك بصبر وعناية ... وهذا يكفى ... سواء نجح أو أخفق فى فهم ما تريد ، ومثل هذا القارئ عادة لا يتحذلق ولا يتظاهر بعلم ولا يلقى الكلام على عواهنه ... إنما نعرفه جميعا من اختيار ألفاظه واتزان أحكامه .

فجملة القول إذن أن القارئ المكتشف ليس بالقارئ العادى ؛ بل هو قارئ نادر ... لأنه وهب من صفات الصبر والدقة وطول البال والباع وحسن التلقى وقلة الادعاء وحب المؤلف — وأقول

حب المؤلف لأنك لن تستطيع أن تتجشم جهدا فى اكتشاف شىء لا تحبه — هذا القارىء وهب من هذه الصفات كلها قدرا يؤهله لأن يكتشف : أى يعطيك أكثر مما يأخذ منك ...

فمن يكتشف جزيرة — ولو صغيرة — يعطيها من القيمة فى نظر الزمن والوجود والتاريخ أكثر مما يأخذ منها ...

هذا القارىء هو خالق المؤلف ...

نعم ... إنه هو الذى خلق « أرسطو » و« أبا العلاء » و« الخيام » و« شيكسبير » .

هذا القارىء الخلاق الذى عندما يخطر له أن يقرأ يكتب ويدون اكتشافه فإنهم يسمونه « الناقد » ، أو على الأصح الناقد المفسر ... هو : « خرستوف كولمب » الفن أو الأدب ... لولاه ما استطاعت الأجيال أن تعرف من مخلوقات الفكر البشرى هذه المعالم والمسالك ...

القارىء المفسر هو أيضا من هذا الطراز ...

ولقد كنت أنت يا قارئى المجهول دافعا إلى البحث عن حقيقتى ، بما أتحته لى من هذه الإجابة التى أرجو أن يكون بها

بعض الجدوى .

إنك لم تذكر اسمك ... ما من أحد يعرفك ... ولكن قد يكون لك فضل فى تعريفى أنا إلى الناس ...

تحياتى إليك وشكرا ...

(ت . ا)

جوهر التعادلية

[لا ينبغي أن تؤخذ كلمة « التعادل » هنا بالمعنى اللغوى الذى يفيد « التساوى » ... ولا بالمعنى الذى يعنى « الاعتدال » أو التوسط فى الأمور .

بل إن معنى « التعادل » هنا هو « التقابل » . و« القوة المعادلة » هنا معناها « القوة المقابلة » والمناهضة .

فإذا لم يفهم معنى الكلمة على هذا الوضع ، فإن « التعادلية » تفقد حقيقة معناها ومرماها .

إن « التعادلية » فى هذا الكتاب هى الحركة المقابلة والمناهضة لحركة أخرى] .

الواحد الصحيح = صفر .

الحياة الإيجابية تبدأ من العدد « اثنين » . إذ بوجود شيئين توجد العلاقة بينهما : أى الحركة والحياة .

كل حركة يجب أن نقابلها وتعادلها (تناهضها) حركة .

كل قوة يجب أن تقابلها وتعادلها قوة .

الله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته . ومع ذلك أوجد بإرادته تعالى قوة أخرى مقابلة : هى قوة الشيطان ، كى تبدأ الحياة البشرية فى التلون والتحرك .

وخلق الله آدم واحدا صحيحا . فكان وجوده سلبيا .

فصنع منه اثنين ... ووجد آدم وحواء .

وعندئذ اتخذ الوجود حركته الإيجابية .

والشمس بمفردها قوة سلبية . ولكنها انقسمت إلى كواكب أخرى تتعادل وتتوازن فى حركة مناهضة لتقاوم وتبقى .... فبدأت فى الكون الحركة الإيجابية .

قوة السلطان المطلق حركة سلبية ... ولا بد من حركة مقابلة معادلة : هى قوة المحكوم ، لتبدأ فى المجتمع حياة إيجابية .

وهكذا ... وهكذا ...

تلك هى التعادلية فى جوهرها .

خلاصتها أن الواحد الصحيح وجود سلبى ...

هو خطوة بعد العدم ... هو من حيث الحركة الإيجابية صفر ... لأنه لا يقاوم غيره ولا يجد غيرا يقاومه ... وبانعدام المقاومة تقف الحركة ...

الحياة الحقيقية لا تبدأ إذن إلا من العدد « اثنين » ...

ولكى يظل العدد « اثنين » موجودا دائما ، يجب أن يحافظ كل واحد فيه على قوته الخاصة ... فإذا تضخم واحد على حساب واحد ، أو ابتلعت قوة أحدهما قوة الآخر ، رجع العدد ٢ إلى واحد صحيح : أى إلى الوجود السلبى ...

التعادلية إذن تفسر الحياة الإيجابية بأنها ضرورة وجود جملة قوى تتقابل وتتوازن مناهضة بعضها بعضا فى الكون والمجتمع ...

وأن العدم يبدأ بابتلاع جميع القوى فى واحد صحيح ...

الواحد الصحيح هو السكون ...

والأعداد المختلفة المقابلة هي الحركة المعادلة المناهضة ... هى الحياة ... تلك هى التعادلية ...

هى فلسفة الحركة المقابلة المعادلة : أى الحياة ...

احتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة ، لتعادل بها وتقابل القوى الأخرى التى تريد أن تبتلعك ... بذلك تقاوم وتتحرك وتحيا !...

التعادلية هى مقاومة الابتلاع ...

إذا كان لديك ضعف ونقص ، فابحث جيدا فى أنحاء نفسك ، فستجد فيها قوة خفية معادلة وزيادة كامنة مقابلة ...

عادل وجودك كما فعلت أرضك إزاء الشمس !... وازن نفسك تجاه القوى المواجهة !... وإلا ابتلعتك فى جوفها ، وأصبحت لها وقودا وطعاما ... وصرت عدما !...

هكذا تقول التعادلية !...

كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها ... ففى المجال السياسى

والاجتماعى مثلا الرأسمالية أرادت ابتلاع العمل ... الاستعمار يريد ابتلاع الشعوب ... الطبقة القوية تريد ابتلاع الأمة كلها ... الغرب يريد ابتلاع الشرق ... إلخ ...

التعادلية هى فلسفة القوة المقابلة والحركة المقاومة للابتلاعية ...

الإسلام وَالتعادلية(*)

(*) هذه الفصول عن « الإسلام » ، التي تنشر هنا للمرة الأولى ، لم تشملها كلمة الدكتور زكي نجيب محمود التي كتبها ونشرها في مجلة الهلال في أول فبراير عام ١٩٦٨ .

وأخيرا ... فما دمنا قد حاولنا أن نجيب عن السؤال الذى نطرحه دائما على أنفسنا وهو عدم وجود فلسفة لنا الآن ، وأن تفكيرنا وفلسفتنا هى ما نستجلبه جاهزا من الفلسفات الأوربية ، فإن هذه المحاولة قد انتهت بى إلى ما كنت أشرت إليه فى عام ١٩٣٧ فى كتابى « عصفور من الشرق » من أن حياتنا العقلية تعيش فى عالمين .

وفى عام ١٩٥٥ كتبت « التعادلية » لأوضح أن كل شىء فى الكون يقوم على « التعادلية » .

ثم وصلت إلى ١٩٨٢ ، فوجدت أن دينى ، وهو الإسلام ، وهو جزء من النظام الكونى ، قائم على التعادلية ، ولذلك أضفت هذا القسم الأخير الخاص بالإسلام من وجهة النظر التعادلية ، ورأيت أن ما يمكن جعله أساسا لفلسفة عربية إسلامية هو ما نشأ من عقيدتنا التى تقول للإنسان إن عليه أن يعيش فى عالمين : أى أن « يعيش فى الدنيا كأنه يعيش أبدا ، ويعيش للآخرة كأنه يموت

غدا » .

وهذا يقتضي من هذه الفلسفة أن تدرس الحياة الدنيا جيدا ، وتحاول أن تعرف ما تستطيع معرفته عن الحياة الآخرة ، ولكنها مع الأسف لم تحاول دراسة الحياة الدنيا لتعايش الحياة الأخرى فى تعادل مُنتج ، فخشينا مواجهة قضايا العصر ، فتخلفنا عنه ...

* * *

ونحن اليوم بصدد تقنين الفقه الإسلامى وجعل الشريعة الإسلامية أساسا للتشريع ، فمن الواجب أن نعرف منشأ هذه الشريعة فى المجتمع الذى ظهرت فيه أول مرة ، والمسار الذى سلكته هذه الأحكام الشرعية من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم ، وهل زالت هذه الأحكام كلها تماما فى مجتمعنا الحاضر أم بقى منها شىء ... ففى القانون المدنى الذى نطبقه اليوم ماذا يتفق مع الشريعة فيه ؟ وماذا يختلف ؟ وفى القانون الجنائى ، ماذا أخذ ؟ وماذا أهمل ؟ كل ذلك لا بد فيه من إحصاء دقيق تحت نظرنا حتى يجرى الكلام فيه على أساس العلم اليقينى بالأمانة العلمية التى كان يعرفها ويمارسها السلف الصالح فى عصور

الإسلام الزاهرة .

وواجب رجال الدين تعريف الناس باتساع أفق ورحابة صدر نبى الإسلام صلوات الله عليه عندما أخذ بما كان جاريا عليه العمل قبل الإسلام دون أن يتحرج ، مثل أخذه بعقوبة قطع يد السارق التى كان معمولًا بها فى الجاهلية وجاء القرآن فأقرّها ، وكذلك عقوبة الرجم فى الزنا التى كانت فى التوراة ، وهذا يدل على أنه لا يوجد فى الإسلام موانع ترفض الأخذ بما لم يكن قد نشأ فى الإسلام وحده ، وهو ما قاله ﷺ (اطلبوا العلم ولو فى الصين) .

فلا حرج إذن من أن يقتبس الإسلام ما ينفع المسلمين ، ولكن رجال الدين فى عصرنا الحاضر أصبحوا لا يجرؤون على ما كان يفعله النبى نفسه ، والذى لم يحرّم ما ينفع المسلمين لمجرد أنه لم يأت به الإسلام ، بل لا يتمسك بما يأتى به هو نفسه إذا كان فيه ضرر ، كما حدث فى مشورته لأصحابه فى قصة النخيل ، فلما رأى رأىَ الناس أتى بالنفع قال لهم : « أنتم أدرى بشئون دنياكم » هذا ما ينبغى دائما لرجال الدين اليوم الاقتداء به فيما ينفع الناس

بصرف النظر عما إذا كان هذا مطابقا أو غير مطابق لما كان يجرى عليه العمل فى العصور السابقة . أى أن يكون الأساس فى ممارسة الحياة على النفع الذى يعود على الناس وليس على النصوص القديمة وحدها .

ولهذا عندما نقول إن الفلسفة الإسلامية عندنا تستقر فى بنيان أقامه المفكرون من المسلمين ، لأن كل فلسفة لا يمكن أن تقام إلا ككل بنيان : حجر فوق حجر ، ومجهودات فوق مجهودات ... فإن هذا البناء لهذه الفلسفة الإسلامية لا بد أن يقوم على أساس الحياة فى عالمين : الدنيا والآخرة . ويجب أن تكون قضايا الدنيا قد تعمق فى دراستها رجال دين ودنيا ، أى رجال متبحرون فى علوم الدنيا إلى جانب تفقههم فى علوم الآخرة ، وفلاسفة متعمقون فى شئون الآخرة ... وبالتعادل بين الحياتين تنشأ الفلسفة الإسلامية والعربية ...

كل ذلك بالروح الذى تميز به الإسلام : وهو الاعتدال بعدم الغلو والتطرف والإسراف ؟

التعادلية فى الإسلام

التعادلية والطغيان

فالتعادلية تقوم على عدم طغيان موجود على موجود سواء فى الأرض بين الأجسام ، أو فى السماء بين الأجرام .

تعادلية الإسلام

والإسلام يقوم على الإيمان بوجود الدنيا ووجود الآخرة ، ولكل وجود شأنه المستقل ، فالدنيا وجود يعمل فيه الإنسان « كأنه يعيش أبدا » ، والآخرة وجود يعمل له الإنسان « كأنه يموت غدا » ، ولا طغيان لأحدهما على الآخر إلى حد الإفناء والإلغاء .

الخير والشر

وقد خلق الله تعالى الخير ليعيش مع الشر على أرض هذه الدنيا ، والنور مع الظلام ، لا طغيان لأحدهما على الآخر . فالوجود الكونى كما خلقه الله تعالى جعل له خالقه هذا القانون الثابت : لا وجود يطغى على وجود . لأن الله لا يلغى ما خلقه ، ولكنه يعدّله ويصلحه ويضيف إليه . حتى الموت ليس فى حقيقته إلغاء لوجود ، ولكنه انتقال لموجود من وجود إلى وجود .

ممارسة التعادلية

ولكن ممارسة التعادلية فى الحياة تستلزم وجود المتناقضات ، فالحياة مكونة من عناصر ، ومن العناصر ما يحاول بعضها إفناء البعض ، سواء فى الفرد بتعارك قواه وصراع جراثيمه ، أو فى

المجتمع بتدافع تجمعاته ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾[1] وهذا التدافع والتناقض لا ينبغي أن يؤدى كما قدّر له الله إلى الطغيان الذى يتم به الفناء التام ... بل هيأ له الضد الذى يحفظ له الوجود ولو فى صورة جديدة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١

العقل والإيمان

ومن أهم العناصر المتصارعة : العقل والإيمان

العقل :

جاء فيما ورد عن الله تعالى فى حديث قدسى مخاطبا العقل : (... ما خلقت خلقا أعجب إلىّ منك ، وعزتى وجلالى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت) . كما قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ... ﴾(١) . والخشية كما فسرها بعض المفسرين ترمز إلى التقدير والإجلال . وقال ﷺ عن الفكر والتفكير : (لا عبادة كتفكير) ثم : (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) .

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

الإيمان :

وإلى جانب تمجيد العقل والفكر فى الإسلام وجد معه الإيمان : كما وجدت الدنيا وإلى جانبها الآخرة . ويقع بينهما أحيانا مواقف متعارضة ، تستوجب الفصل بينهما بالقول إن الإيمان يُستخدم فيما يتصل بالله ، والعقل يستخدم فيما يتصل بالبشر . ومن أقوال الرسول ﷺ إنه مر على قوم يتفكرون فى الله ، فقال : (تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق ، إنكم لا تقدرون قدره) ... ولا يخطئ العقل إلا إذا وصل إلى الطغيان وظن أنه يعرف قدر الله بعقله وحسب أن فى إمكانه أن يسبر غور المحيط بأصبعه . وقد لجأ عمر بن الخطاب إلى الإيمان ليمنع طغيان العقل عندما علم بالإسراء : لم يقبل عقله ما حدث ... وكاد أن ينضم إلى الذين كذّبوا وشنعوا ، وارتد أقوام كانوا قد آمنوا . وعلم أبو بكر الصديق بما كان من عمر ، فتصدى له مؤكدا أن الإسراء حدث فعلا ، وقد علم به من النبى نفسه ... ووقع عمر لحظة بين ما يرفضه العقل ، وهو من أعظم الناس تقديرا للعقل ،

وبين ما يقبله الإيمان ... فانتهى إلى الإيمان ... لأن العقل محدود بحدود القدرة البشرية .. أما الإيمان فهو متصل بالقدرة الإلـٰهية غير المحدودة .

فالإسلام إذن تعادلية : لا يطغى فيه العقل فيحجب نور الإيمان ، ولا يطغى الإيمان فيشل حركة العقل . والعقل سلم يصعد عليه بالمنطق البشرى ، والإيمان شعاع يضىء بغير دليل أرضى .

الدين والدنيا

جمع الإسلام بين الدين والدنيا ، أى بين شئون الروح ودواعى الجسد ، أى أن الاتصال بالله والصلاة والصيام والاعتكاف ونحو ذلك من شئون الروح ، لا ينفى الاتصال بالمرأة والمأكل والمشرب ونحو ذلك من ضرورات الجسد . وهذا الجمع هو ما يميز طبيعة الإنسان الذى يتغذى روحيا بغذاء نورانى ، وجسديا بغذاء مادى ، ولهذا كانت فطرة الإنسان هى جوهر الإسلام فى توازنه وتعادليته .

فاليهودية طغت فيها المادية إلى حد أن كان الهيكل المقدس فى عهودها الأخيرة مكان تجارة ، فكان لا بد من رد فعل قوى تمثل فى الروحية المسيحية ، ولهذا بعث الله من لدنه الروح القدس ؛ أى المولود بغير أب من البشر ، ولكن احتمال الروح العلوى لم يكن ممكنا للبشر إلا فى حدود المثل العليا ، فكان أن أرسل الله تعالى الرسول من البشر ليقيم التوازن بين الروحية والمادية ، تبعا للطاقة البشرية وطبقاً لطبيعة الخلق البشرى من روح ومادة .

وفى هذا التوازن أى « تعادلية البشرية » ختام التكوين فى الإنسان ...

الاعتدال وعدم الإسراف

قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٣١

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ... ﴾(١) فقد اتفق جماعة من المتطرفين على أن لا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ولا الطيب ، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ، فقال رسول الله : (ما بال قوم قالوا كذا وكذا ! لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) .

وقال رسول الله ﷺ : حبب إليّ من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) . ومعنى ذلك عندى : هو ما يرمز لخير ما فى الدنيا : النساء رمز المادة ، والطيب رمز الجمال فى الرائحة والفن ، والصلاة رمز الروح والقرب من الله . وكل ذلك فى اعتدال وبعد عن الغلو والإسراف .

(١) سورة المائدة ، آية ٥

عدم الغلو فى الدين

حتى فى الدين قال الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ﴾(١) .

كما جاء فى الأحاديث الشريفة عن الإسلام :

(إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ...) أى أن الله تعالى يأمر فى الإسلام بعدم الغلو والإسراف . أى بالاعتدال والتعادل هذا هو الأساس الذى تقوم عليه التعادلية ، لأن عدم الاعتدال معناه طغيان موجود على موجود ، والله يحافظ على وجود كل ما أوجده .

ومن صور هذا الغلو أن سارع بعض رجال الدين إلى تحريم شهادات الاستثمار وهى أشبه بما كان يحدث أيام السيدة خديجة رضى الله عنها ، عندما كانت تكلف النبى فى شبابه باستثمار مالها فى

(١) سورة المائدة آية ٧٧ .

التجارة ، واليوم تقوم بمثل هذه المهمة المصارف بأسلوب يختلف بعض الشيء عن العرف الاستثماري في زمن الرسول ... وهذه قضية كان من الواجب اليوم بحثها موضوعيا وبروح بعيدة عن التطرف والغلو .

قيل إن الرأى المتطرف خشى أن يكون هذا الاستثمار مثل الربا ... وقال الرأى الآخر إن المقارنة بعيدة ، لأن الربا ليس فيه تجارة ، وإنما فيه رجل فقير واقع فى نكبة ، فأراد أن يخرج من هذه النكبة بمال يقترضه من رجل غنى ، فاشترط صاحب المال على المدين المحتاج أن يردّ القرض ويزيد عليه مبلغا آخر . فالربا هو استغلال غنى قوى لنكبة فقير ضعيف ، وهذا عكس الاستثمار الخالى من الضعيف والقوى ، بل إن الضعيف هنا هو صاحب المال الذى يريد تنمية ماله بالتجارة ، والتراضى ، وليس فيه ضغط ولا نكبة ولا إنقاذ ... أما احتمال الخسارة ، فهو شأن كل تجارة : فيها المكسب وفيها الخسارة . أما الحل المقترح بإلغاء كلمة « الفائدة » ووضع كلمة « المضاربة » محلها ، فهو من قبيل « التحايل » غير اللائق فى دين كالإسلام قائم على الصدق

والصراحة ... ولا خطر على الإسلام ومستقبله إلا من فقيه ماجن يشيع فى المسلمين الخوف من الحرام والحلال فيقعد المسلم عن التحرك النافع . من ذلك أن غنيا كبيرا أودع أمواله الطائلة فى مصرف أجنبى فاستغلها المصرف فى التجارة فربحت الأرباح الكثيرة ؛ فأراد أن يعطى صاحب المال نصيبه فى الربح فرفض قبضها لأنه لا يأخذ الفوائد . فحار المصرف ولم يعرف كيف يتصرف فى مال ليس من حقه حجزه ، وسأل المصرف عن هذا الأمر العجيب فقيل له إن هذا الرجل مسلم ، والإسلام يرفض الفائدة . فتعجبوا فى المصرف ، وقال بعضهم : إذا كان يرفض ربح أمواله من التجارة فلماذا لا يقبضها ثم ينفقها فى مشروعات تعود بالخير على مواطنيه المحتاجين !؟ ولكن هذا الغنى المسلم لم يفهم إلا أن هذا حرام كما أفتى له المفتى ...

الرأى الآخر

وفى الآراء جاء فى الإسلام أن الله تعالى وهو العزيز الجبار استمع إلى قول من خالفه وإن لم يأخذ به : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾(١) .

كذلك علمنا الإسلام أن تكون المجادلة بما هو أحس ، وعند عدم التلاقى فى الرأى يكون ﴿ لكم دينكم ولىَ دينِ » وفى هذا أيضا ضمان لعدم طغيان رأى إلى حد إبادة رأى آخر .

(١) سورة البقرة آية ٣٠

الحق والباطل

وكما خلق الله النور والظلام ، خلق الحق والباطل والصواب والخطأ ، وجعل أداة التمييز بينهما هى مسئولية العقل ؛ فإذا عجز العقل عن الرؤية والتمييز جعل نور الإيمان هو العين المبصرة ، ولكن دون الطغيان المبيد . فقد قدّر الخالق بحكمته أن يظل الموجود الذى خلقه موجودا . فسوف يظل الظلام موجودا ما وجد النور ، ويبقى الباطل والخطأ ما بقى الحق والصواب .

النصر والهزيمة

وكما قدر الله النصر فى بدر ، قدر الهزيمة فى أحد ، ليتمشى كل شىء طبقا لحركة الحياة ، وتبعا لقانون الوجود ، ولحكمة أخرى هى فى علمه ، والله أعلم .

دين البشر

وعندما أراد الله أن يكون الإسلام دينا للبشر بما فى البشر من صفات متناقضة ونزعات مختلفة منها القوة والضعف والصحة والمرض ، واللذة والألم ، والانشراح والضيق ، والسعادة والشقاء ، بعث رسولاً من البشر تمر به هذه المواقف ويعرف هذه المشاعر ؛ فعرف مشاعر الزوج السعيد بإخلاص خديجة ، وآلام الزوج الشاك بما شاع من حديث الإفك حول عائشة ، كما عرف المرارة من طباع الناس من عدو وصديق إزاء هذه الشائعات . ثم متعة الإيمان وانتصاره بدعوته . وعرف الرسول حب الله له ، كما تلقى عتابه له يوم ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى ﴾(١) .

وبالاختصار فقد لخص بوجوده كل الوجود البشرى من كل جوانبه وكل مواقفه ، مصداقا لقول الله له : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ... ﴾(٢) .

(١) سورة عبس آية ١ ، ٢ (٢) سورة الكهف آية ١١٠

التعادل والعدل والاعتدال

ويروى عن الإسلام : (بالعدل قامت السماوات والأرض) تنبيها إلى أنه لو كان ركن من أركان العالم زائدا على الآخر أو ناقصا عنه لم يكن العالم فى هذا الانتظام .

والعدل والاعتدال والتعادل هى العناصر الثلاثة « للتعادلية » وضد هذه العناصر الطغيان والظلم والإسراف ، وقد ذكرت فى القرآن كلمة « الإسراف » كثيرا ، والأمر دائما بالقول « لا تسرفوا » ، لأن الإسراف إخلال بنظام الكون ...

الجمـال

قال الله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾(١) أى فى الاعتدال ، وهو ما يمكن أن نصفه بالتناسق والانسجام وهو الجمال : فالصوت الجميل فى التلاوة كان النبى الكريم يحبه ، وكذلك الرائحة الجميلة فى الطيب ، واللغة الجميلة فى القرآن ، وفى بعض الشعر الرفيع . ولا يمكن أن يكون الفن الجميل مكروها إلا عندما ينحط إلى التعبير عن أحط وأخس وأقبح ما فى الإنسان . وفى المرأة قال ﷺ : (خير النساء المرأة إذا نظرت إليها سرتك) ... وروى أبو هريرة عن رسول الله أنه قال : (من كان له شعر فليكرمه) أى يجعله حسن المنظر . فالإسلام لا يحب أن يطغى القبح فيفسد حسنَ التقويم ، ولا أن يطغى الجمال فيؤدى إلى التخنث ... فالإسراف ، أى الطغيان فى الإسلام يفسد انتظام الكون ...

---

(١) سورة التين آية ٤ .

طغيان الخمر

نزل التحريم النهائى للخمر عندما صدر عن حمزة للنبى عليه الصلاة والسلام من القول الجافى المخالف لما يجب من احترام النبى وتوقيره ما يدل على أن حمزة قد ذهب عقله بالخمر ، فعرف رسول الله أنه ثمل ، أى أن طغيان الخمر قد حجب العقل ، فاختل بذلك الاعتدال فى إدراك الإنسان ، وفقد تعادله واتزانه .

طغيان العقل

منذ القرن التاسع عشر والعقل يوالى انتصاراته بالعلم الذى نشأ عنه وأبدع مخترعاته واكتشافاته التى أذهلت الناس ، وجعلت قدرته تكاد تحجب قدرة الله ، حتى أطلق الفيلسوف « نيتشه » صيحته المشهورة : « إن الله قد مات » ... وجاء القرن العشرون والعقل فى أوج تألقه والعلم قد أخرج الإنسان من جاذبية

الأرض ، فقال عالم الفيزياء الذى قطع فى أبحاثه عن المادة شوطا أبعد مما وصل إليه « أينشتين » وهو العلامة « ألفريد كاستلر » مؤلف « المادة هذا المجهول » صرح بقوله : « إننا كلما أوغلنا فى دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئا ... فهناك دائما ، وسوف يكون إلى الأبد ، ما هو مخفى عنا » .

ولما سئل : مخفى بمن ؟ قال : بالله .

« الله » والعلم

ولفظ «الله» على لسان عالم فى الفيزياء محرج له ... لأنه يخشى هو وعلمه أن يُسأل بعد ذلك « من هو الله » ؟: ولن يستطيع أى علم أو عقل بشرى على كوكبنا أو أى كوكب آخر مهما يعد أن يصف « الله » ولعل خير إجابة هى ما وردت فى القرآن : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ . وعجزنا مثل عجز الكبد مثلا فى داخل جسمنا ، وعجزه إلى الأبد ، عن إدراك وصف أى شىء خارج جدران هذا الجسم البشرى . فخارج جدران الكون لا يمكن

لمخلوق داخله أن يرى خالقه .. فالله خارج حدود العقل البشرى .

المجهول

النور الإلهى وحده هو الذى قد يصلنا بهذا المجهول . ولذلك فإن من اعتمد على العقل وحده فى الاتصال بالله لن يراه . لأننا لا نرى الكوكب البعيد إلا من نوره ، وليس بمعادلات العقل ولا تلسكوباته ، فأقواها لا يرينا غير السطح الأجرد . أما النور الإلهى فهو الذى قد يرينا شيئا آخر يوحى إلينا بوجود لا يعرفه غير القلب .

وللوصول إلى المعرفة الكاملة لا ينبغى أن يطغى العقل على القلب فلا ينتفع بنوره ، ولا أن يطغى القلب على العقل فيخسر تفكيره المنتج ، والإسلام مارس هذه التعادلية .

الرحمٰن

من القوى المدمرة للإنسان الغضب .. وطغيان الغضب يمكن أن يؤدى إلى اختلال التوازن العقلى والعاطفى للفرد والمجتمع ، وهدم تعادلية الوجود .. وعلاج الطغيان للغضب فى الرحمة .. ولذلك جعل الله الرحمة من أبرز صفاته .. فبدأ آياته باسم الله الرحمٰن الرحيم ليذكر الإنسان دائما بالرحمة إذا اقترب منه الغضب وأنذر بالطغيان ، فالإنسان مخلوق ضعيف ، ولا يقوى دائما على الصمود فى مواجهة غريزة عنيفة كالغضب والظلم والعدوان ، إلا أن يتسلح بفضيلة الرحمة والعدل .

وقد ورد فى الحديث القدسى : (إن رحمتى سبقت غضبى) .

العسر واليسر

جاء فيما ورد عن النبى الكريم أنه كان يصلى أحيانا فيأتى حفدته الصغار فيمتطون ظهره وهو راكع . فيطيل هو فى ركوعه لتطول متعة أولئك الصغار الأبرياء ، ولم يقل أحد كيف يفعل النبى ذلك ، وهو فى صلاته فى حضرة الله تعالى ؟ أليس فى ذلك ما يمس واجب التبجيل والتوقير للخالق ! وهم لا يعلمون أن الله فى علاه وعظمته ليس فى حاجة إلى تبجيل وتقدير إذا كان فيما حدث متعة بريئة لأطفال أبرياء ... وكذلك ما أورده الترمذى من أن عمرو بن العاص دخل ذات يوم المسجد وصلى وهو جنب ، فذهب بعض الناس إلى النبى الكريم وأخبروه بذلك ، فسأله النبى ، فقال عمرو لرسول الله : إن اليوم كان شديد البرد وما كان يحتمل الاغتسال فى ذلك البرد . فابتسم النبى وتركه وانصرف .

وفى الإسلام « الضرورات تبيح المحظورات » . و(إنما الأعمال بالنيات) . فإذا انتفت نية السوء والكسل

والتهاون فى الدين ، فإن الدين يتسامح ، لأنه « يسر لا عسر » .
وفى الإسلام تعادلية : فلا طغيان للعسر على اليسر .

حتى فى الشعائر

فالغلو والإسراف فى شعائر الدين ليس مما يحبذه الإسلام . فشعائره الموصى باتباعها قد روعى فيها الاعتدال . والتعادلية فى الدنيا والدين هى اعتدال وعدل وتعادل . فلا إسراف ولا طغيان .

إن الإنسان ليطغى

قال تعالى : ﴿ إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾[١] واستغناء الإنسان يحدث عندما ينال القوة فى صورة مال وصحة وعلم . وتاريخ الإنسان يدل على أنه كلما ظفر بالقوة ، ولو فى

(١) سورة الفلق آية : ٦ ، ٧

عنصر من عناصرها ، ضعف اهتمامه بالدين والخالق . فالإنسان البدائى فى ضعفه وعجزه عن مواجهة قوى الطبيعة ، وخوفه على نفسه من هذه القوى ، وعدم فهمه لها ، أخذ يبحث عن قوة أخرى تحميه ؛ فظهر الكاهن الذى أفهمه أن القوة التى تهدده وتحميه من الخوف وتمنحه ما يريده هى قوة الأرواح الشريرة والخيّرة ، وبدأ الدين الأوّلى بكهنته وقرابينه ، إلى أن استولى على قياد الناس وطغى ؛ فثار عليه الناس ، ثم ارتقى مفهوم الإنسان فاكتشف القوة الحقيقية فى الله ورسله وكتبه السماوية . إلى أن بلغ من رقى فهمه وعقله أن اكتشف قوة أخرى غير سماوية هى : العلم . وكان الذى كشف له عنها هو العقل الذى خلقه الله وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم * كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾ .

واستغنى الإنسان بالعلم عن الله عندما رأى من العلم معجزاته ، فقال نيتشه : « إن الله قد مات » . ونسيت كلمة الله فى قرآنه :

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾(١) .

العلم القليل

ولكن طغيان العلم لم يستمر طويلا . فقد قالت المعرفة الروحية فى مواجهة العلم المادى : « القليل من العلم يورث الإلحاد ، والكثير منه يورث الإيمان » وقد أخذ العلم يرقى ويتبحر إلى أن جاء عالم معاصر وقال : إنه كلما توغلنا فى علمنا البشرى سوف يظل شيء محجوبا عنا . فلما سئل عما يحجبه عنا ، قال : « الله » ...

« العمل عبادة »

وقد وضع الإسلام عبادة الله فى المنزلة العليا . ومع ذلك لم يجعل هذه المنزلة تطغى على منزلة العمل ، فقد مر يوما رسول الله (وقيل عمر) برجل ناسك انقطع لعبادة الله لا يعمل شيئا غير

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥

العبادة ، فسأله عمن يطعمه ، فأجاب أن أخاه هو الذى يعمل ويطعمه ، أما هو فليس له عمل . فقال له : أخوك الذى يعمل ويطعمك !... أخوك أعبد منك ...

الإتقان

كذلك قال النبى ﷺ : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) . ففى الحضارة الإسلامية كل شىء فى الوجود يؤدى عمله بإتقان إنما يحقق الغاية من وجوده .

الحرب والسلام

فى الإسلام لم تكن الحرب للعدوان ، بل كانت جهادا فى سبيل الله ، أى فى سبيل السمو الروحى والغاية العليا . أما السلام فكان لغاية مثمرة ، بغلق باب عداء عقيم ، حتى لو تكلف ثمنا . فقد جاء فى صلح الحديبية أن النبى ﷺ أملى كتاب الصلح على علىّ بن

أبي طالب قائلا : (اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال مشركو قريش : لو كنا نعتقد أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فقال الرسول للكاتب (اكتب ما يريدون) . وتم الاتفاق على أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما رُدَّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدا لم يردُّوه إلى المسلمين . فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله أن الله سيجعل له فرَجاً ومخرجا . ونزل القرآن بالفتح .. فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أوَ فتح هو ؟ قال : (نعم) .. فطابت نفسه .

التجارة والصناعة

وصدقت فطنة الرسول بأن الصلح فتح لأبواب مثمرة فنمت في الإسلام التجارة والصناعة .

كما ورد في القرآن والأحاديث ما يدعو إلى اتخاذ الصنائع والأسباب . ففي الحديث الشريف عن صاحب الحرفة : (إن الله يحب المؤمن المحترف ... ويبغض السائل الملحف ..) ومن الأنبياء من كان يأكل من عمل يده كداود عليه السلام .

الحضارة

والحضارة الإسلامية متحركة وليست جامدة ، وهي تشجع لذلك الأخذ بكل جديد مفيد . فلا تدع الجديد المفيد يفوتها بينما هي قاعدة في زمن قديم . ولا تأخذ بغريب غير مفيد لها فتفسد شخصيتها ويختل كيانها . فلا طغيان ، بل إضافة وتكامل . وخير

مثال للإضافة المفيدة ما ورد فى القرآن من ألفاظ هى فى الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعرّبتها ، فهى عربية بهذا الوجه . هذا إلى ما ورد فى الحديث الشريف : (اطلبوا العلم ولو فى الصين) ، وما حدث فى عصور النهضة الإسلامية من حركات الترجمة والاطلاع الواسع فى علوم العصر ومعارفه ، مما جعل الإسلام يسهم فى الانتقال بشعوب أخرى ، ومنها شعوب أوروبا فى القرون الوسطى ، من الظلام إلى النور .

كانت الحضارة الإسلامية تدخل من أسباب الدفاع ما يلزمها ، فأدخلت « الخندق » الفارسى و« اللأمة » الرومية ونحو ذلك . فجاء كل هذا مصداقا للقول « إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان » . لأنه يستطيع أن يتحرك دائما فى الزمان والمكان ، ولا زال حتى اليوم يتحرك إلى الأمام فى الزمان والمكان إذا لم يقف فى وجه حركته بعض الجهلة الجامدين أو بعض الناقلين المقلدين . من ذلك ما شاع عندنا اليوم ممن يتلقى على يد المستشرقين الأجانب العلوم الإسلامية وما يتصل بها وينالون درجة الدكتوراه ثم يحرصون على أن يسبق أسماءهم هذا اللقب

فيقال عنهم : الدكتور الشيخ فلان ... فى حين أن رجال الدين المسيحى ممن تعمقوا فى الدراسات المسيحية وهم كرادلة فى الفاتيكان لا يضعون لقب « دكتور » إلى جانب اللقب الدينى ، ونحن الذين كان لدينا اللقب العلمى المعادل للدكتوراه وهى شهادة « العالمية » من الأزهر الشريف تركناها لنشرف بما ليْس ثابتا فى أرضنا . وفى تراثنا البعيد ، وعندما كان لدينا خيرة الأئمة والشراح من علماء الدين العظام كنا نسميهم « الفقهاء » لأن التفقه فى علوم الدين والفقه هو الذى أبقى للتفكير الإسلامى حياته ... ولقد كتبت مرة أقترح أن يكون اللقب العلمى الأسمى لرجل الدين عندنا هو : « الفقيه » بدلا من الدكتور ليتذكر دائما تاريخنا المجيد وعمرنا المديد فى الفكر الإسلامى ...

التكافل الاجتماعى

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : (ما زال جبريل يوصّينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) ... والوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها : مسلما كان أو كافرا . وهو الصحيح . ويكمل ذلك شرط الزكاة فى الإسلام . ولو نظمت الزكاة تنظيما يتفق مع عصر العلم والآلات الحاسبة ونحو ذلك لاستغنى المجتمع ، ليس الإسلامى وحده ، بل العالمى أيضا ، عن النظم الشيوعية . مع الاحتفاظ بالحرية فى العقائد ، وعدم الطغيان فيها .

حرية الرأى

فى موقعة بدر اختار النبى محمد مكانا للمعركة وقال لجيشه : (ننزل هاهنا) ، فقال له أحد أصحابه : « يا رسول الله ، أرأيت هذا المكان ، أمنزلا أنزلكه الله ؛ ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فأجاب محمد بكل صراحة : (بل هو الرأى والحرب والمكيدة) فقال له مخالفه فى الرأى : « يا رسول الله : إن هذا ليس بمنزل ، فسر بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، فإنى عالم بها وَبقُلُبِها : بها قليب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح ، فتغور ما سواه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون » .

فقال له النبى : (لقد أشرتَ بالرأى) .

الصدق

عندما مات إبراهيم ابن النبى من مارية القبطية، وهى تبكى والناس يحملون جثته، وحَفار يحفر قبرا، نظر النساء إلى السماء صائحات: «انظروا... انظروا، انكسفت الشمس» وصاح الناس: «إى والله!. لقد انكسفت الشمس لموت إبراهيم» وكانت مناسبة وفرصة لاعتبارها معجزة، ولكن رسول الله نهض وصاح فى الناس: (أيها الناس... إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد...). وبكى النبى وهو يقول: (لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى). فقال له أحد الحاضرين: يا رسول الله... تبكى وأنت رسول الله ؟! فقال رسول الله : (إنما أنا بشر... تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إن شاء الله إلا ما يرضى الرب، والله لولا أنه أجل معدود، ووعد صادق ، ووقت معلوم ، وأن آخرنا لا- ق بأولنا ، لجزعنا عليه جزعا غير هذا ... إنا عليك يا إبرادنم لمحزونون !..)

موت النبى

عندما مات رسول الله صلوات الله عليه دخل أبو بكر مسرعا واتجه إلى الجثمان ورفع عنه الغطاء وقبله وبكى وقال : « بأبى أنت وأمى ... طبتَ حيا وميتا ... أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا » .

بينما عمر بن الخطاب يصيح من الخارج : « أيها الناس ... والله ما مات رسول الله ، إنما عرّج بروحه كما عرج بروح موسى ... » .

وقال العباس عندما لم يصدِّق الناس موته : « لقد ذاق رسول الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا : أحل الحلال ، وحرّم الحرام ، ونكح وطلّق ، وحارب وسالم ، وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم ... » وجعل أبو بكر يصيح فى الجموع الهائجة الحزينة : أيها الناس !

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ﴾[١] أما بعد : فمن كان منكم يعبد « محمدا » فإن « محمدا » قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ...

هذا التفكير فى الإسلام هو الذى استلفت نظر أوروبا إلى الإسلام ، وسوف يستمر هذا النظر والعجب باستمرار التعمق فى التفكير . ولقد صادفت أخيرا كتابا منشورا عن مخطوط عربى لكاتب عاش منذ ألف عام يحتوى على موضوع يشابه ما جاء فى كتاب « الأمير » لمكيافيلى من الآراء السياسية ، وذكر فى مقدمته أن هذا المؤلف العربى سبق مكيافيلى بألف عام . .

ولسوف يزداد التقدير للفكر العربى والإسلامى كلما اطلع العالم فى الغرب على ما يجهلون من المخطوطات العربية والإسلامية ... إلا إذا شاء سوء الطالع ، للإسلام فى صورته

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤

العظيمة باليسر والتسامح والرحمة ، أن تطغى صورة أخرى منفرة بالعسر والعنف والغلو تُذكِّر بما حدث للمسيحية أيام محاكم التفتيش التى نفرت الناس من الدين ورجاله ...

اللهم احفظ الإسلام وشعاره الذى جاء به نبيه : (إنما بعثت رحمة للعالمين) .

ختام

إن أهمية التعادلية اليوم هى فى كونها لازمة أكثر من أى زمن مضى ، وخاصة فى بلاد الإسلام ، لأن التعادلية فى جوهرها نابعة من جوهر الإسلام ، والخروج على الإسلام فى جوهره يتبعه بالضرورة خروج على جوهر التعادلية وعناصرها : العدل والتعادل والاعتدال .

والبلاد الإسلامية تستلفت أنظار العالم الآن بالتطرف والإسراف فى الخصومات بين المسلمين ، والحروب التى تستخدم فيها أعنف أدوات الدمار ، حتى أصبحت كلمة المسلم لا توحى بالاحترام . بل إن الإسلام الحقيقى ليس معروفا فى بلاده نفسها ، إنما المعروف والمطبق طقوس وشعائر . وهذا طبيعى فى كل الأديان ، لأن البشر فى كل مكان وزمان ، لا يطيقون الجد طول الوقت ، وحتى الجد يحاولون أن يخرجوه من أعماق الجوهر

إلى سطح المظاهر .

والإسلام دين التسامح القائل أنه « لا إكراه فى الدين » . والمعترف ببشرية الإنسان وما يصادفها من ضعف ، ولكنه يدعو دائما إلى عدم طغيان هذا الضعف .

ومحاربة الطغيان وإقامة الميزان فى أعماق كل إنسان ، هو دعوة الإسلام فى القرآن الكريم . فقد قال الله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألّا تطغوا فى الميزان ﴾(١) . للميزان إذن مكــان فى الإسلام . ولصدق الإسلام نجد فى المعتقدات الأولى منذ مبدأ التاريخ البشرى ذكرا للميزان الذى يوزن به الخير والشر عند الإنسان . فالله تعالى عندما خلق الإنسان خلق معه الخير والشر والميزان الذى توزن به أعماله . هكـذا ظهرت هذه المعتقدات الأولى فى مصر القديمة . وللميزان مكان عندى ، لأنى ولدت فى برج الميزان . فمن الطبيعى إذن يوم سئلت عن مذهبى أن يكون هذا المذهب نابعا من بذرة نابتة فى أرضى : كالميزان ، وما يتصل به : كالتعادلية . ولـذلك من رأيى أن

---

(١) سورة الرحمن آية ٧ ، ٨ .

المذهب أو الفلسفة إنما هى نبت يظهر فى أرضه ومناخ بلاده . ولقد سأل السائلون : « لماذا لم تظهر عندنا فلسفة » ؟ وجوابى هو أن الفلسفة موجودة عندنا ، مادة تدَرس فى المعاهد والجامعات ، ونحشو بها رؤوسنا ، شأن الكثير مما نأتى به من خارج بلادنا ونرتديه مصنوعا كالملابس الجاهزة ... والفلسفة التى نرتديها وُلدت فى بلادها نتيجة وضع حدثَ فى بطن أمة ، فجعلها تفكر وتبلور تفكيرها فى قضية فكرية ... فإذا سألنا أنفسنا : أوَلم يحدث فى بطن أمتنا العربية هزة من الأحداث تجعلنا نفكر ونبلور تفكيرنا فى سؤال أو قضية ؟ وعندما نسأل : وكيف نفكر ؟ وأين أدوات التفكير ؟ هنا يأخذنا العجب : فديننا الإسلام يزخر بالدعوة دائما إلى التفكير ؛ فقد قال رسول الله صلوات الله عليه « لا عبادة كتفكر » ، كما روى عنه أنه قال « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . ولقد أنتج الإسلام فى عصوره الزاهرة من المفكرين والفلاسفة ما يفخر به العقل الإنسانى ، فأين ذهبت اليوم أدوات التفكير عندنا ؟ ربما كان السبب طول أمد الاحتلال الأوربى لبلادنا الإسلامية ، مما حوّل أدوات التفكير

عندنا إلى أدوات حفظ وترديد ، لا أدوات فكر وتفكير ، حتى لا تحدث اليقظة الفكرية التى تزلزل احتلالهم . ولقد شاع الجهل والتجمد ، حتى أصاب الدين نفسه ، متمثلا فى رجاله ، فضعف وجبن عن ملاحقة التقدم . وبعد أن كان فلاسفة الإسلام مثل : ابن رشد ، وابن سينا ، وابن خلدون ، هم الذين ينيرون السبيل لأوروبا فى الجامعات ، أصبح أهل الإسلام هم الذين يذهبون إلى أوروبا لتلقى علومنا بل أيضا لتقديم رسائلهم فى الإسلام إلى الأساتذة الأوربيين ليتوجوهم — وهم من شيوخ الدين الإسلامى — بشهاداتهم وألقابهم !... وانشغل الناس عن جوهر الدين بالاهتمام بمظاهره والحديث السطحى عن الحلال والحرام ، كما انشغل العوام والمتحذلقون والمغالون من بعض علماء الدين أنفسهم ، إيثارا للعافية أو عجزا عن قيادة الجماهير الجاهلة أو الغافلة إلى فهم نواحى العظمة فى الإسلام التى استطاعت أن ترقى بأمة قريش المتخلفة إلى « خير أمة أخرجت للناس » .

ولقد كان علماء الإسلام فى عهد من العهود الزاهرة يدفعون المجتمع إلى التقدم بآرائهم المستنيرة ، ولهم « فى رسول الله أسوة

حسنة » عندما كان يشجع الناس على حل مشكلاتهم الدنيوية بما يرون فيه الخير لهم ؛ من ذلك ما نصح به الناس بأن يتبعوا رأيا له فى تحسين إنتاج النخيل ؛ فلما لم ينجح الرأى وأخبروه أن الإنتاج قد ضعف ، قال لهم صلوات الله عليه قولته العظيمة : (أنتم أدرى بشئون دنياكم) وهى قولة كان يجب على المسلمين أن يتبعوها فى كل ما يفيد مجتمعهم .

ونحن اليوم على أبواب سباق على التقدم والأنفع . والإسلام هو الداعى إلى التقدم . والنبى العربى ، فيما خرج عن الوحى ، كان يطلق حرية الرأى الآخر فيما يراه صالحا ونافعا . وهذا ما حدث أيضا فى غزوة بدر ، عندما عارض أحدهم رأى النبى برأى آخر كان فيه النفع . وهنا تجلت عظمة النبى عليه الصلاة والسلام ...

إلى أن جاءت عهود ظلام ، وظهر من علماء الدين بدافع من النفاق مَن روَّجوا لنصوص عتيقة تؤدى إلى طغيان الظلام ، فى حين تشجع بعض آخر قليل حاول أن يستمد من جوهر الإسلام الصحيح روح التجديد النافع بما يسير بالأمة نحو التقدم .

وبذلك انشطر المجتمع : تجمد فيه البعض وتحرك البعض ، وحدثت البلبلة ، واهتزت العقيدة ، وساعد على اهتزازها غلاة رجال الدين ممن تناسوا قول الله تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ﴾[١] ... مع أن الإسلام فى جوهره ضد الغلو والطغيان ، فهو لا يحب الجمود ، لأنه دين حركة واعتدال وتفكير . ونحن فى زمننا الحاضر فى حاجة إلى رجال الدين الذين يحثون فى شجاعة ، وينادون بما فى الإسلام من دعوة إلى الفكر والاعتدال ، وعدم الغلو والطغيان لعنصر من عناصر الكون . وهى إرادة الله تعالى ، لأن طغيان النص على الجوهر قد يحوّل الإسلام عند الناس السطحيين إلى مجرد غلوّ فى مظاهر التدين أكثر مما هو فى جوهره طريق إلى الاعتدال فيما خلقه الله لنفع الإنسان . والدين هو النور والمصباح : والنور من عند الله ، والمصباح من عند البشر . والمصباح لا يصنع النور ، ولكن يجسده وينشره .. والنور قائم بذاته ، وهو الخالد ، والمصباح قائم بمن صنعه وحمله ، ويمكن أن يتغير . والدين يضعف عندما يطغى

(١) سورة المائدة آية ١٤٣

الاهتمام بالمصباح وتزاويقه فى زجاج يستلفت الأنظار ويحول دون وصول النور فى صفائه إلى أعماق القلب . ولذلك حث الله تعالى على عدم الطغيان والاعتدال والعدل وقال ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾(١) والوسط كما جاء فى بعض التفسيرات هو : « العدل » .

ولعل أهم ما انفرد به الإسلام هو التركيز على وصف رسوله بأنه بشر ... ثم اصطفاه ربه بالوحى الذى هو سبيل اتصاله بالله . ولم يجعله فى حاجة إلى معجزات ، لأن معجزة البشر الحقيقية هى : « العقل » أعجب مخلوقات الله . والبشرية معناها : أن الله تعالى لم ينكر الدنيا . ولذلك كان مجال التفكير والفلسفة التى للإنسان أن يتبحر فيها هى : الدنيا والمجتمع ، وتوجه فكر الناس إلى التفكير فى الخلق ، وليس الخالق ، لأن عقل الإنسان مهما يعظم لن يقدره حق قدره.فالمجهود الأكبر لهذا العقل البشرى يجب أن يُوجه إلى الإنسان ومجتمعه ... وهذا مجال الفلسفة والمذاهب الفلسفية .

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣

ولكل أمة فلسفتها وفلاسفتها .. ولهذا سئلنا : لماذا ليس لنا فلسفة ؟ وأهم من هذا السؤال سؤال آخر أجدى بوضعه الآن وهو : ما هى القضية أو الموضوع الذى يجب أن تدور حوله هذه الفلسفة ؟. إن الفلسفة القائمة فى العالم اليوم بمذاهبها المختلفة تتفق فى صفة واحدة يطلقون عليها « الفلسفة المادية » . وليس معنى ذلك عندى أنها فلسفة خاصة بالمادة وحدها ، ولكن معناها أوسع ، ولذلك يمكن أن أسميها « الفلسفة الدنيوية » لأنها تقوم على الدنيا وحدها . لأن منبعها ليس كتابا سماويا . وهو غير ما جاء به الإسلام الذى يذكرنا دائما أن لنا وجودين : وجود الدنيا ووجود الآخرة ... أى كلما ذكرت الأرض ذكرت معها السماء ... وعلى الإنسان أن « يعمل لدنياه — أى فى أرضه — كأنه يعيش أبدا ، ولآخرته — أى للسماء — كأنه يموت غدا » ... وهكذا إذا كانت لنا فلسفة فيجب أن تتحرك فى عالمين ، وليس فى عالم واحد . وهذا ما يجعل المسألة أصعب ؛ لأن على الفيلسوف الإسلامى أن يكون ذا تفكير شامل يتسع للوجودين ، فى تعادلية لا تسمح بطغيان تفكير على تفكير فيلغى

وجوده . إذ الله الذى أوجد كل موجود لا يريد لوجود أن يلغى وجودا من مخلوقاته ، لأن كل موجود يجب أن يبقى موجودا فلا يفنى ولا يطغى ...

والإسلام يعاقب من يلغى وجود غيره كالقاتل ، كما يعاقب من يلغى وجود نفسه كالمنتحر .. لأن الإسلام يتحرك فى عالمين .

والصعوبة التى تقف أمام الفلسفة الإسلامية هى هذا التحرك فى عالمين : أحدهما لغته المنطق والثانى لغته الإيمان . وهو موقف تفكيرى لم يحدث لفلاسفة أوروبا ، لأن تفكيرهم يعيش فى عالم واحد ، ولغة واحدة ، هى لغة المنطق العقلى ، وقد واجه الفيلسوف الإسلامى ابن تيميه هذا الموقف وعرضه فى كتابه : « درء تعارض العقل والنقل » . كما أن القارئ لابن رشد وابن سينا يشعر بما يبذلانه من جهد للعبور بأمان من خلال السور الذى يفصل بين العالمين ...

وصعوبة أخرى أمام الفيلسوف الإسلامى : هى الحساسية الشديدة للمجتمع الإسلامى تجاه كل تفكير جديد أو تفسير لم ينشأ عليه ، ومن ذلك فكرة بشرية النبى التى لا يتقبلها بعض

المسلمين بسهولة ، على الرغم من تكرار هذه البشرية فى القرآن كثيرا ، فهم يحيطون النبى وحياته بالتقديس الذى يقرّبه من الألوهية أكثر مما يقربه من البشرية ، وعندما توفى الرسول لم يصدّق الناس أنه مات كما يموت البشر ، إلى أن صاح فيهم العباس بن عبد المطلب قائلا : « إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا ، أحل الحلال وحرّم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم » .

وقد جهد النبى فى إقناع المسلمين أنه بشر كلما حاولوا أن ينسبوا إليه معجزات ، فرسالته ، وهو خاتم الأنبياء أن يقنع الناس بالعقل ، وليس بالخروج على العقل . وهو مرسل فى مرحلة أخيرة من مسيرة الإنسان يحترم فيها عقله وبشريته ، ويقنع الناس من خلال احترام النظام الكونى وليس عن طريق الإخلال بالنظام الكونى ، كما ذكر لبعض الأديان .

ولكن الإسلام أرقى من المسلمين .. وقد سبب ذلك له الكثير من المتاعب ، وخاصة عندما يتصرف النبى فى بعض الظروف

والمناسبات تصرفات البشر .. فعلى الرغم من صراحته وشجاعته وقوله إنه « حبب إليه النساء » ، فإن من علماء الدين الإسلامى من نفى عنه هذا الحب البشرى ونسب اتصاله بالنساء وزواجه منهن إلى أسباب سياسية ، وأن أولئك النساء لم يكن صغيرات ولا جميلات ، ظنا من هؤلاء العلماء أن تعليلهم هذا هو اللائق بمقام الأنبياء . وانتهج مثل هذا التفكير بنية التجريح بعض الأوربيين ، ولم يفهم الجميع الحكمة فى أنه بشر .

وهكذا تعثر المسلمون فى فهم فلسفة الإسلام ، ولم يسيروا بها إلى مجالات أرق وأنفع . بل إنهم جنحوا بسوء فهمهم لحكمة الإسلام ، وسوء إدراكهم لفلسفة بشرية النبى إلى الغلو فى صفات تدخل بالإسلام إلى دنيا الخرافة والتدجيل — وخاصة عند الشعب البسيط — باسم التقديس والتبجيل ...

كل هذه المعوقات وقفت فى طريق التقدم الإنسانى .. وحالت دون سير الإسلام به فى الطريق الصحيح الذى رسمه الله ورسوله هداية للبشر إلى نوره الإلٰهى وإلى العمل الصالح لوجوده .. وأخطر ما فى هذه المعوقات تجميد الإسلام .

نتج عن ذلك شل حركة التفكير ، واختفاء الفلسفة عندنا والاكتفاء بالفلسفة الأوروبية المتحركة بكل موجود ، العاملة على نمو كل مولود . وقد رسخت عندنا فكرة فهمت خطأ فوقفت بنا عن كل حركة تفكير وتعبير ، هى القول : « إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان » وهذا صحيح : فالقرآن لمن يقرؤه بعناية يجده حقا معجزا باحتوائه لكل موجود فى الحياة ، وصالح لكل زمان بالتفسير الصالح لهذا الزمان . والفهم الخاطئ للجامدين: أنه صالح بالتفسير القديم فى الزمان الجديد ... ولكن الزمان يتغير ، والناس تتغير . والله فى كتابه الكريم تحدث عن التغيير والتغير وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[١] ... إذن هى دعوة من الله إلى الناس لتغيير ما بأنفسهم من جهل وتأخر إلى الوراء فى الفكر ، ومن قعود عن العمل فى زمن متغير بما فيه فائدتهم من علم وتقدم . فكيف إذن لا يسرى أمره هذا على قرآنه الكريم الذى يوصى بالتغيير النافع ! والتغيير لن يكون فى النص ، فهو من عند الله ، ولكن فى التفسير الذى هو من

---

(١) سورة الرعد آية ١١ .

عندنا .

والعجيب ، ونحن فى زمن تغير فيه كل شىء ، وأصبح الفرد والمجتمع فى صورة جديدة ، والأفكار الإنسانية اتخذت اتجاهات وأوضاعا مختلفة ، وما يزال القرآن الكريم يعيش بتفسيرات قديمة لشراح ومفسرين من أهل القرون الغابرة ، الذين عاصروا زمنا اختلطت فيه المعرفة الصحيحة بالشائعات والخرافات ، دون أن نجد من علماء الدين اليوم من ينهض بعلم وشجاعة ، فيضع تفسيرا عصريا يلائم الزمن المعاصر .

والقرآن صالح بالفعل لاحتواء هذا العصر وهذا الزمن ، ولكن العاجز هو التفسير الملائم للزمن الجديد . ولعل السبب هو الجهل والجبن والخوف . والتخلص العقيم من ذلك كله عندنا هو بالاستناد إلى القديم الغابر ، وإبقاء القديم على قدمه . وهذا الاعتقاد الخاطئ بتفسير القرآن على أنه صالح لكل زمان بمعنى أن كل زمان يجب أن يقف أو يكر راجعا إلى الزمن السابق القديم للمجتمع المعاصر لنزول القرآن ، وهو ما لم يقصده القرآن نفسه ، لأن النص على أن نغير ما بأنفسنا معناه أن الزمن يتغير ،

وأننا يجب أن نتغير التغير الملائم لتغير الزمن نحو الأنفع لأنفسنا .

ولذلك تركنا الله فى جمودنا وعدم تغير أوضاعنا فى التأخر الفكرى والاجتماعى .. لأنه تعالى قد نبهنا إلى أنه لن يغير ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا ...

وبتجمد عالِمِنا ، قام لسدِّ الفراغ جاهلنا .

كل ذلك لا يشجع على بناء فلسفة حرة نافعة عندنا ... هذا بالإضافة إلى عادتنا فى هدم أى فكر أو مشروع فلسفة ، بدلا من أن نضيف إلى البناء حجرا ، حتى يصبح الحجر فوق الحجر بناء فلسفيا متكاملا .

ولما كان تفكيرنا الفلسفى يجب أن يقوم على التفكير الإسلامى ، فإن علماء الدين ومعاهدهم وجمعياتهم سوف يرون هذا الموضوع من اختصاصهم وحدهم ، فيواجهون الباحث فيه بالاتهام بالخطأ فى العقيدة .

والفلاسفة من المسلمين وغيرهم الذين اتهموا بالزندقة معروفون . والناتج عن ذلك إما فكر دينى متمسك بوضع قديم جامد ، أو فكر إسلامى متحرك بتفسير جديد نافع .

فإذا تغير الزمن واقتنع المسلمون بضرورة هذه الفلسفة الإسلامية ، لأن البديل لن يكون إلا التفكير القائم على أسس أخرى للفلسفة ، فإن هذا قد يوقعنا فى مشكلة أخرى : هى الفصل بين الفكر الديني والفكر الدنيوى المؤسس على الفلسفة الإغريقية ، كما حدث فى أوروبا . ولكن الفكر الإسلامى وهو فكر فلسفى لم يقبل التخلص من الفكر الدينى ليصبح كما يسميه الأوربيون باسم « الفكر اللايك » . فاجتهد الفلاسفة العرب فى محاولة الانتفاع بالفلسفة الإغريقية دون مساس بجوهر الفلسفة الإسلامية ، ولم يهملوا الحياة فى عالمين .

ولكن الحياة الإنسانية فى عالمين تحتاج إلى التعمق فى فهم خصائص كل حياة ، والحرص على العدل والاعتدال حتى لا يطغى عالم على عالم ، فيشل حركته . وقد حدث هذا الطغيان عندما اجتاحت جيوش الغزو الحضارة العربية .. ولم يكن الغزاة على قدر من الثقافة ، وكان سلاح سيطرتهم القوة العسكرية المادية .. فلم يفهموا حقيقة الفكر الإسلامى ، بل استخدموا الكثير من مفكريه فى تدعيم سلطانهم المادى ، وإضعاف قوة النور

والتقدم عند المحكومين . فانتشرت الخرافات وشاعت التفسيرات التى تؤدى إلى التجمد . وبذلك وقفت الحضارة الإسلامية ، ووقف الفكر الإسلامى وأغلق باب الاجتهاد ، واضطهد الحكام المسيطرون الفلاسفة المتحررين ، وأغروا بهم العامة والدهماء وشوّهوا تفكيرهم ... وذهب الطغيان بالعصر الذى كان فيه الإسلام يسبق فيه الأمم الأخرى فى العالمين : فى عالم الآخرة بالفلسفة الدينية التى ترفض المعجزة والخرافة والجمود ، وفى عالم الدنيا برفض المادة المسرفة والدعوة إلى الاعتدال : ففى الإسلام منهج مرسوم للعدل الاجتماعى كان فى طريقه بالزكاة إلى التنظيم الفعال لو استمرت الحضارة الإسلامية فى مسيرة التقدم ولم تصادف التأخر بسبب الغزو الخارجى وانحراف الدين الداخلى ، وتشويه كل حركة وعمل فيهما دعوة للتقدم . ولقد كان فى الإسلام منهج عملى واضح ، فيما نسميه اليوم « بناء الإنسان العربى » منه القول : (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع) . وفى الاعتدال والتعادلية علاج اقتصادى وصحى ، أفسدناه للأسف : اقتصاديا بزيادة التموين فى رمضان ،

وصحيا بالتخمة للإسراف فى الطعام وأصنافه فى شهر الصوم — كذلك القول : (النظافة من الإيمان) وتركنا القذارة فى مجتمعنا هى الغالبة ، وبذلك عملنا على هدم مجتمعنا .

وإذا كنا لم ننتفع بالإسلام فى شئون اقتصادنا وصحتنا ، وهو مما نمارسه فى حياتنا اليومية ، فكيف نطمع فى إنشاء فلسفة لنا وهى مما لا يخطر على بال أكثرنا !...

ومع ذلك فقد يأتى زمن يقرأ فيه المسلمون القرآن بفهم ، ويدركون ما فيه من آيات تدعو إلى التفكير ... آيات بعيدة المعنى والمرمى مثل هذه الآية العجيبة : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[١] . لا شك أن هذه الآية قد تناولتها التفسيرات المختلفة عبر الأجيال . وتفسيرها عندى أن الله الواحد قد خلق الدابة التى فى الأرض ، والطائر الذى فى السماء ، بنفس الوضع عند أمثالكم أيها البشر : يختار من بينها من يتقدمها فى صفوف الدواب أو الطيور ، ويقودها فى مسيرتها نحو الأمان ،

(١) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

حتى لا تضل وتتعرض للهلاك . وإذا أردت التشبيه والمقارنة فإن الدابة أو الطير الذى يتقدم ويقود فهو نبى دنياهم . وأحيانا أراقب النمل والنحل فى تجمعاتها ، وفى نظام العمل عندها ، وأسترسل فى الملاحظة ؛ فأرى أن النحل دولة لها ملكة تشرف على شغّالة تجمع العسل من الزهر فهى نظام ملكى . أما النمل فهو نظام اشتراكى يعمل فيه النمل كله ، لا يعرف ملكةً ولا ملكاً فى نظامه ، وهو يخزن طعامه ليستهلكه فى الشتاء ، والله أعلم بحياته التى قد تشبه حياتنا فى نظامها وعاداتها ، فهى كما قال تعالى ﴿ أمم أمثالكم ﴾ وكأن الخالق الأعظم أراد أن ينبهنا من غفلتنا ويقول لنا : « أفيقوا أيها البشر المغرور ، لقد خلقت أمما أمثالكم ، فيها الضئيل ، وفيها الضخم ، فيها المرئى لكم ، وفيها المخفى عنكم . كما خلقت عوالم لا تعرفون وجودها إلا بأشعة تصل إليكم بعد بلايين السنوات الضوئية ... وما أرضكم هذه إلا ذرة رمل فوق شاطئ مجهول فى محيطات لا طول لها ولا عرض ... وما يزال علمكم غير صالح لإدراك كنه الله» : الذى ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، ﴿وما أوتيتم من

العلم إلا قليلا ﴾ — ومع ذلك أريد لعلمكم هذا أن ينمو ، ولعقلكم هذا أن يعمل ، حتى لا يطغى الجهل فلا يبقى لوجودكم الأرضي معنى ولا ضرورة ... » .

ولذلك أراد الله للفلسفة أن تكون ، لا لتعلم ما لا يمكن أن تعلم ، ولكن لتجعل لحياة الإنسان معنى .

أما بعد ...

فيجب أن نسعى لإيجاد فلسفة عندنا ... وأن تقوم هذه الفلسفة على العالَمين : عالم الدنيا وعالم الآخرة ...

— أما الدنيا فأداة الفلسفة فيها : العقل والحواس ... وهى ميسورة ، إذا اجتهدنا فى الإحاطة بكل ما أنتجه العقل الإنسانى فى كل تاريخه ، وما وعته الحواس بكل مداركها . فلا نطغى بمعرفة ونهمل معرفة ...

— أما الآخرة فأداة الفلسفة فيها : العقيدة والحدس . وهى الأصعب ، لأن الحدس لم يستقر بعد الاعتراف به بشريا وعلميا كوسيلة للمعرفة ، فلا تفاهم به إذن عند العلماء فى الغرب ، وهنا يجب الاعتماد على أنفسنا .

ولكن ...

العقبة الكبرى عندنا هى وضع الحواجز الحديدية بالنصوص التفسيرية القديمة فى وجه التفكير .. والفلسفة تفكير حر ...

كذلك أمامنا عقبة أخرى هى عدم إثارة قضية تحتاج إلى بحث ... مثل حكم التصوير ... فقد جاء فى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) . ثم قوله : (إن أصحاب هذه الصور يعذَّبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم ...) ولقد صار التصوير أحد أعمدة الحضارة فى الفن ورقى الذوق والصناعة والزراعة والتعليم إلخ ... رغم ذلك ما زال بعض المتشددين يرون أنه حرام مستشهدين بالحديثين السابقين ، دون أن يكلفوا أنفسهم البحث عن جوهر الحديثين وعلتهما وما قد يكون وراءهما من ملابسات ! وإذا كان اعتقادهم صحيحا فلماذا يظهر رجال الدين بالتلاوة والخطابة فى التليفزيون «المرئى» بصورهم المتحركة وأصواتهم المسموعة ؟ فإذا قيل لنشر الدين ؛ عندئذ تنشأ قضية : هل الغاية تبرر الوسيلة فى الدين ؟ بمعنى أن الإسلام يقبل استخدام وسيلة مكروهة فى سبيل نشره ؟ تساؤلات لا تطرح على الإسلام دين الروح والعقل لولا جمود الجامدين وتشدد المتشددين .

وعلى كل حال فإن مثل هذه الأسئلة والقضايا التى قد يطرحها

بعض الناس ليس فيها من حرج ، فالتفكير البشرى خلق لكى يتحرك ...

ولكن المطلوب هو أن يتحرك كل ذلك لا فى إطار التجمد والتشدد والعنف بل فى إطار الاعتدال والعدل والرحمة التى هى من صفات الله المتجلية فى خلقه للكون وفى رقى الإنسان وفيما شملته هذه الفلسفة التعادلية من وجود الخليقة التى أوجدها الله تعالى : حيث لا يطغى وجود على وجود ...

والله هو الرحمٰن الرحيم وهو الهادى بنوره إلى سواء السبيل ؟

خلاصة التعادلية الإسلامية

١ — تعادلية الكون — للمحافظة على كل ما أوجده الخالق .. فلا طغيان لموجود على موجود ... أوصى الله فى قرآنه بعدم الغلو والإسراف ، وبالعدل ، لعدم الإخلال بالتعادل الضرورى لتوازن عناصر البقاء : من أضخم الكواكب إلى أصغر الخلايا .

٢ — الله لا يلغى وجود ما أوجده ، ولكن يغير صفة الوجود ، وما نسميه الموت ليس إلغاء لوجود ، بل تغيير صفته ، ونقله من وجود دنيوى إلى وجود أخروى ... وما سمى الناسخ والمنسوخ فى القرآن ليس الإلغاء ، ولكن « وقف التنفيذ » لحكمة وظروف ... لأن من غير المعقول واللائق الزعم بأن الله يغير إرادته كما يفعل البشر العاجز .

٣ — الإسلام صالح لكل زمان ومكان : والمقصود أن تفسير القرآن ليس واحدا ، بل إنه متعدد بتعدد الزمان والمكان : فالنص واحد والتفسير متعدد . ولكل زمان دولة ورجال وتفسير . والكون متحرك فى الزمان والمكان ، وكذلك الإسلام .. والإنسان متحرك فى مراحل العمر ، لا جمود أو وقوف فى زمن واحد أو وضع ثابت .

الله وحده الثابت .. وفى الإنسان شيء ثابت وهو المتصل بالله .. أما المتصل بالدنيا فهو القابل للتغيير مثلها .

٤ — بشرية الإسلام — أكد القرآن على أن نبى الإسلام بشر يوحى إليه . فهو إذن محكوم ببشريته ، إلا فيما نزل به وحى ، فهو

محكوم بألوهية التنزيل . ولأن النبى بشر ، وقد أراد الله أن يكون كذلك حتى يخالط البشر فى مجتمعهم ويعرضوا عليه مشكلاتهم وقضايا مجتمعاتهم ، ويشير عليهم بالحلول التى يراها ويتلقى فيها التأييد أو التعديل من الله .. حتى جاء جانب كبير من القرآن ، متصلا بحياة الإنسان ومجتمعه ، وخاصة المجتمع فى زمانه . ولم يصدّق كثير من الناس أن النبى بشر مثلهم يمكن أن يموت ، إلى أن صاح فيهم العباس قائلا : « إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا : أحل الحلال وحرَّم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم » .

٥ — حرية البشر : ترك الإسلام للإنسان حرية الرأى والتصرف فيما يراه نافعا له ولمجتمعه ، وتبعا لحسن استخدام عقله الذى خلقه الله له ، وحثه على استعماله ليدرك به عظمة الخالق فى خلقه ، ويتابع به حركة الحياة فى الدنيا ويبعد عنه الجمود الذى يؤدى إلى ضعف نشاطه الفكرى ، فلا يقوى على تغيير ما بنفسه حتى يساعده الله على ما فيه خيره ، مصداقا لما قاله تعالى فى قرآنه

الكريم : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

إذن تغيير المجتمع والإنسان ، وبناء الأمة ، وجودها على الأرض ووجودها فى السماء ، ورسم الطريق إلى الوجودين هو واجب الفلسفة الإسلامية ؟

القاهرة ١٤٠٣ هـ ت . ا

دعَاءُ التعادلية

يَا مَن بيَـــــدِه نفسِى ....

اللهُمَّ اجعَل عَقلِى يَفهم حِكمتَك

واجعل قَلبِـــى يَصِل إلى نورِك

١٤٠٣ هـ توفيق الحكيم

sciences have led them to conceive greatness of God as :« Albert Einstein» and « Alfred Kastler ».

* * *

The change then of society and man, the building of a nation in its existence on earth and in heaven, and designing the path to both existences are the functions of Islamic Philosophy.

T. A.

EQUILIBRIUMISM
PRAYER

Almighty, He who possesseth myself ..

Make my mind understandth your wisdom,

And my heart reachth your light.

1403 h — 1983 Tawfik Alhakim ;

divorced, fought and made peace .. No shepherd reaching with his sheep the summit of hills had ever suffered or was more decent among you than the prophet of God »

5 — Freedom of the People :

Islam asserted for man freedom of opinion and behaviour within what he believes to be useful for man and his society and in accordance with making better use of his mind created for him by God the Almighty. Islam urged man to use his mind in order to be able to conceive the greatness of God in his creation the movement of life on earth, to take him away from freezing which leads to weekness of mental activity thus he would be unable to change himself, till he receives from God what helps him to attain what is good for him. This is attested by Almighty verses in the Kuraàn where God says:

«God shalt not change a people state till such people shall change such a state».

Almighty God said : « Among my Prayers who know and venerate mé more are the scientists » .

God means savants whose learnings in various

accordingly the prophet is governed by his own humanity except for what is divinely inspired to him, such inspiration is governed by the Almighty conveyance to his prophet. Since the prophet is human, God willed him to be so in order to mix with people in their community, to be presented with problems and difficulties of their community and then the prophet will indicate the solutions he deems proper and receives support or amendment from Almigty God. This pattern explains why the greater part of the Kuraàn is connected with and bearing on the life and society of man, his community in his own age in particular.

Many people did not believe that the prophet was a human being like them, and in particular he was not liable to pass away till « Al Abbas » the prophet's uncle shouted at them saying The prophet had not passed away before he made the right path a clear programme : detailing allowables and forbidding non-allowables, he got married and

to fancy that God changes his will as is the case with failing human beings.

3 — Islam is suitable for every age and place :

This means that interpretation of the Kuraàn shall not be the same either. Interpretations are as varions as are the ages and places. Thus the verse stipulation is unchangeable but the interpretation is varied. For every age there are its own state, men and interpretation .. universe is of movement in the age and place and so is Islam. Man is of movement at varions stages of age, no freezing nor suspension either in the same age or the same stable state.

Only God is stable .. and in a human being there is a stable part i.e. that part connected with the Great Creator.. the other part connected with this life on earth is as changeable as is the world.

4 — Islam Humanity :

The sacred Kuraàn commended the Islam prophet to be a human being inspired by the Almighty,

Islamic Equilibriumism
In Brief

1 — Universe equilibriumism :

In order to preserve beings by the Great Creator : No being shall oppress another . In His «Kuraan» Almighty God forbids extravagance and exaggeration and commended justice in order not to infringe the necessary equilibria required for the survival of the elements balance starting from the tremendous planets down to the smallest cells.

2 — Almigty God does not annul what. He creates but He only changes the manner of existence :

What we call death does not cancel existence, but only changes the being manner and moves it from this world existence to an eternal one, what is called superseded and superseding in the wholy Book — The Kuraàn shall not be conceived as annulment but may be a Kind of «execution suspension» because of certain prudence and circumstances .. it is neither reasonable nor appropriate

with yourself and have it searched all over. Then you will come across a hidden power of equation and an inherent corresponding excess.

You have to equate your existence in the same way your planet did against the sun. Put yourself in balance against the facing powers! Otherwise these will swallow you up. You will be their fuel and food. You will become nil !

This is what equilibriumism doth say.

A power that swells requires to swallow the others. In the political and social domain for instance, capitalism wanted to swallow labour ...Colonialism wants to swallow peoples .. The powerful class wants to swallow the whole nation .. The west wants to sallow the east .. etc.

Equilibriumism is then the philosophy of the alternate power and a movement resisting swallowing.

tituent, the figure Two shall return back to the image of the whole figure One i.e. to passive existence.

Hence equilibriumism interprets the positive life to be the necessity for a group of powers to exist, to correspond, to be balanced resisting each other in the society and the universe.

A nil state commences with swallowing all powers into the integral figure One. Integral figure «one»is a state of stagnancy while varions alternate figures represent the equating and resisting movement .. it is life .. this is equilibriumism.

It is the philosophy of the equatingly corresponding movement.

Keep your own power independent and free to equate and be able to meet other powers waiting to swallow you. In this way you resist, move and live.

Equilibriumism is : resisting to be swallowed.

If you suffer a shortage or weekness begin

resist and to survive .. Thus the universe positive movement started.

The absolute power of a sultan is also a passive movement .. The existence of an alternate and equivalent power is imperative for the society i.e. the power of the ruled so that the society may commence a positive life.

And so on .. and so on ..

Such is equilibriumism in its essence that : whole figure one is of passive existence; It is a step after nil. It is a zero as regards the positive movement, since it does not resist anything else and does not find another thing to resist it. When resistance is nil movement shall stop.

Accordingly real life does not begin but with the figure « two » .

In order to be permanently existing «figure Two» each one in it shall preserve its own power..If one constituent figure becomes swollen at the expense of its twin constituent or if one power in other words manages to swallow the power of the cons-

1 = ZERO

According to this concept : positive life commences with figure «two». Two things create relationship between them : i.e. life and movement.

Any movement shall have an opposite one to balance and resist it.

Almighty God alone shall be the only One, the Integrated One. However through His Almighty Will He created a corresponding will i.e. the power of the devil in order to make human life capable of getting coloured and to move ....

God created Adam a one complete whole, but his same existence was passive ..

So, He created two of him : Adam and Eve. Then and only then did existence adopt its positive movement.

The sun by itself is a passive power, but other planets started to drop out to create equilibria and to strike a balance against the mother «sun» to·

EQUILIBRIUMISM ESSENCE

The word equilibriumism should not in this book be taken to mean equality , as Arabic language indicates, Neither should it mean moderation or a compromise among things.

The true meaning for the purpose of equilibriumism here shall mean the corresponding strength while the equilibriumism force shall also mean the corresponding or resisting force.

Unless the sense of the word shall be taken to mean the above, equilibriumism shall lose its real meaning and aim .

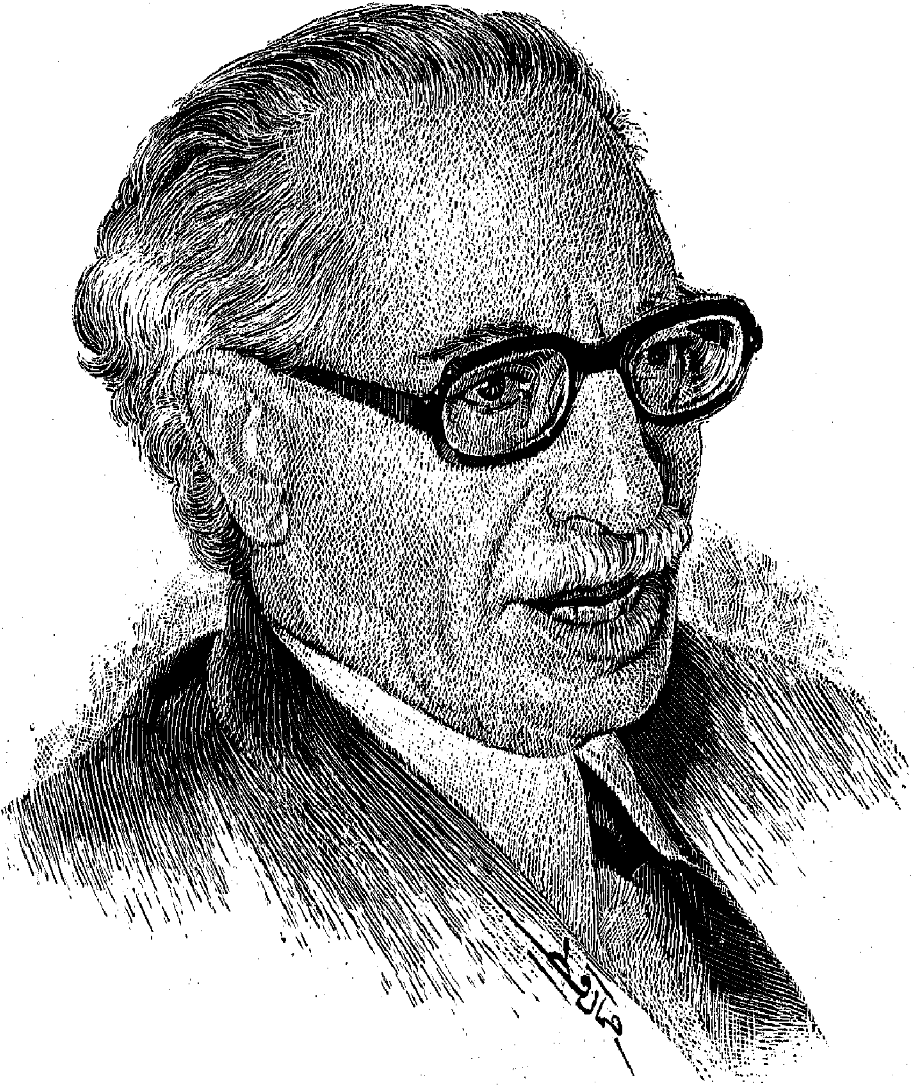
Accordingly equilibruimism in this book shal always be understood to mean a corresponding and resisting movement against another one.

Translated from the true text of Tawfik Al Hakim « Equilibrium & Islam » by Mohammed Ibrahim Abdul Aziz (University of Riyad formerly and actuall the Middle East Observer Counsellor)

رقم الإيداع ٣٣٣٢ /١٩٨٨
الترقيم الدولى ٤ ــ ٠٤٠٠ ــ ١١ ــ ٩٧٧

TAWFIK ALHAKIM

EQUILIBRIUM
&
ISLAM



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٨٠ قرشا